2

قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين (ع)
لبنان ـ حارة حريك



الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢
خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net
info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net
www.fadlullahlibrary.com
youtube/tawasolonline

Facebook:

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة
تواصل أون لاين

٢

قضايا وأفكار

مقالات متنوّعة في شؤون الدِّين والحياة

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
لبنان ـ حارة حريك

المقدّمة

بأسلوبٍ قريبٍ إلى العقل والقلب، يُكمِل سماحة الشيخ علي غلوم أحد علماء الكويت إصدار الجزء الثاني من هذه السّلسلة، وهذا الجزء كما الأوّل عبارة عن مجموعة من المقالات التي نشرها في صحيفة الوطن الكويتية، وهي تلامس الواقع الإنساني في أبعاده النفسية والاجتماعية والسياسية والتربوية، بحيث تشكّل منهجاً إسلاميّاً حركيّاً يعالج الأمور بطريقة منطقيّة لا تعقيد فيها ولا فذلكات. فسماحة الشيخ علي غلوم واحدٌ من العلماء الذين تربّوا على أيدي السيّد فضل الله (رض) ونهلوا من معين مدرسته الإسلامية التي هي اليوم رمز الوعي والعقلانية الإسلامية التي تتقن بجدارة لغة العصر، ومن هنا فإنّها أدخلت هذا الإسلام العظيم إلى العصر بكلّ مسؤولية.

أسأل الله التوفيق لكلِّ الدُّعاة والعاملين في سبيل الله إنّه سميعٌ مجيب.

مدير المركز الإسلامي الثّقافيّ

شفيق محمّد الموسوي

رجب ١٤٣٣ هـ

حزيران ٢٠١٢ م

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥ ـ ١٦]، هكذا جاء الإسلام ليُخرج الإنسان من سيطرة الباطل والظلم والوهم والجهل والخرافة (الظلمات) ويدخله في رحاب الحقيقة والعدل والعلم (النور).

صُوَرٌ قرآنيّة

قدّم القرآن الكريم صوراً من الخرافة:

على مستوى العقيدة: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنعام: ١٠٠]. فنسبة الجنّ لله وعبادتهم باعتبارهم أولاداً ذكوراً هو من الخرافة.. كما إنّ نسبة الملائكة لله وعبادتها كبنات هي من الخرافة وتخرّصٌ بلا علم ولا دليل. وهكذا عبدتها أمم.

على مستوى التشريع: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام:١٣٦ ـ ١٣٩].

وهكذا كان كَهَنَةُ معابد الأصنام يشرّعون، ويدّعون أنَّ هذه التشريعات من عند الله، والهدف بكلِّ بساطة هو أكل أموال الناس بالباطل.

على المستوى الاجتماعي: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٣٤]. يشير المرجع الديني الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل أنّ في الآية تعريضاً ببعض العادات الجاهلية في مبالغتها في احترام الزوجة لزوجها المُتَوفّى، إذ كانوا يوجبون عليها أن تعيش لمدّة معينة بجانب قبر زوجها تحت خيمة سوداء قذرة وفي ملابس رثّة بعيدة عن كلّ نظافة أو اغتسال، أو يمنعونها من الزواج مطلقاً، أو يجعلون أمرها بيد أبنائها، أو يقومون بحرقها، أو بدفنها حيّة معه في قبره.. إلاّ أنَّ الآية جاءت وألغت كلّ هذه الخرافات، مع المحافظة على احترام الحياة الزوجية بإقرار العدّة.

على المستوى المعرفي: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٢٧]. فنفى القرآن الكريم خرافة قصة الحب وصراع الأخوين على فتاة.

عودة الخرافة

وممّا سبق يتبيّن أنّ من مهام الدين محو الخرافة وتثبيت الحقائق، ولكن من المؤسف أن نشهد دخول الخرافة من بوابة التديّن، فالبعض ممّن ينسبون أنفسهم إلى التديّن بالإسلام هم من وسائل نشر الخرافة وإضفاء الشرعنة عليها، وعلى ذلك أمثلة كثيرة جداً.

خُذْ على سبيل المثال الاهتمام المبالغ به في التعاطي مع قضايا تأثير الجنّ

والسـحر والعين، ومنـاداة الخضر للحضور إلـى مجالس تُعقَـد خصّيصاً لقضاء الحوائـج! وبناء القبور والأضرحـة الوهميّة في بعض البيـوت أو المناطق النائية دون دليـل، ومن ثم تشـجيع الناس على تقديـم النذورات إليهـا.. وبالطبع الكلّ يعلـم إلـى مَن سـتعود هـذه النـذور، إلاّ أنّ البعض مـا زال يقع فـي حبائل هؤلاء الدجّالين.

منشأ الخرافة

طرح العلامة السـيد محمد حسين الطباطبائي (رحمه الله) في تفسيره الميزان بحثاً قيّماً حول منشأ الخرافة والسبيل للتخلّص منها، حيث اعتبر أنّ فطرة الإنسان تدفعه إلى الكمال الحقيقيّ لا الوهميّ، فهو عندما يمرض يبحث عن علاج طبّي، وعندمـا تواجهه مشـكلة تربويـة ينبغي أن يبحث عـن حلٍّ تربـوي، وعندما ينهار وضعـه الاقتصادي، فمن المفتـرض أن يبحث عن حلٍّ اقتصـادي حقيقي.. ولذا فـإنَّ فطرتَه تدفعه إلى أن لا يخضع إلى الـرأي الخرافي والوهمي.. إذاً أين تكمن المشكلة؟

اعتبـر العلامـة (رحمه الله) أنَّ مشـاعر الإنسـان هي أهمّ العوامـل التي تدفعه للأخـذ بالخرافـة، وأهـمّ تلك المشـاعر: الخوف الناشـىء من الشـيء الوهمي، والرجـاء المتعلّـق بالشـيء الوهمـي. ويضـرب على ذلـك مثال مَـن يدخل إلى الصحـراء فـي ليلة ظلماء ثم يتوهّـم أية حركة أو صوت على أنّـه صادر عن غول أو بعض الجنّ، ومن ثم يُقنع نفسـه من شـدّة الخوف أنَّ ما توهّمه حقيقة، وينقل ذلـك لاحقـاً إلى مَـن حوله، فيصدّقـه البعض ويرسّـخون أوهامهـم لتتحوّل إلى حقيقة منتشـرة بين الناس، ثم يشرعون في وضع التدابير رجاء دفع الشرّ الموهوم لتتحوّل هذه التدابير إلى سُنّة راسخة!!

القراءة الخاطئة للنصوص

وبـدوري أضيـف عاملَيْن آخريـن، الأوّل هو التمسّـك بنصـوص مدّعاة على الديـن، فكما أخبـر القرآن عن افتراء الكهنة والأحبـار والرهبان على الله، كذلك يفعل اليوم بعض المتلبّسـين بالدين.. والثانـي الفهم الخاطئ لنصوص صحيحة ومثال ذلك التأويل الخاطئ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّـيْطَانُ مِنَ الْمَسّ﴾[البقرة:٢٧]، أو للنصوص التي تتحدّث عـن وجود الشـياطين فـي أماكن قضـاء الحاجـة (الحمامـات) وهي لغـة رمزية اعتُمدت لبيان مصادر الضرر من قبيل الجراثيم والفيروسات.

القضاء على الخرافة

وطرح العلامة الطباطبائي السـبيل للقضاء على الخرافة بقوله: «وأما ما سلكه القرآن في ذلك، فهو أمْـرُه باتباع ما أنزل الله والنهي عن القول بغير علم، هذا في النظـر.. وأمّـا في العمل فأمْـره بابتغاء ما عند الله فيه، فإن كان مطابقاً لما تشـتهيه النفـس، كان فيه سـعادة الدنيـا والآخـرة، وإن كان فيه حرمانها، فعنـد الله عظيم الأجر، وما عند الله خير وأبقى».

لا إكراه في الدين

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦].

ظاهر الآية أنّ الإسـلام لا يريد لنا أن نُكره أحداً على الالتزام بأية قناعة تخصّ الديـن والعقيدة، لأنّ مسـألة الدين هي مسـألة قناعة فكريـة، والقناعة تحتاج إلى الدليل وإلى الوجدان ليقبلها، ولن يتحقّق ذلك من خلال الضغط والقوة والإكراه.

طريقان واضحان

مسـألة الإيمان تتّصل بالإنسـان نفسه، وطريق الرشـد كما طريق الغيّ ـ أمامه ـ واضحة بعد كلّ البيان الذي قام به القرآن وبجهود النبي صلى الله عليه وآله، وعلى الفرد أن يختار ويقرّر مصيره ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[الإنسان: ٣]. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَـاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَـاء فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]. ولكن هذا لا يعني أنَّ المؤمن يتساوى مع الكافر، ولذا جاءت الآية بعد ذلك مباشرة لتبيّـن هـذه الحقيقـة: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَـا لِلظَّالِمِينَ نَـاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُـرَادِقُهَا﴾[الكهف: ٢٩].

نفي الإكراه

تكـرّر في عـدّة آيـات نفـي إكـراه النـاس على الإيمان، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٩٩]، أيّ إنَّ الله سـبحانه وهو الخالق الذي بيده كلّ شـيء، لم يُكره أحداً على الإيمان وجعلهم مختارين، فهل يريد من أحد ـ ولو كان شـخص النبي ـ أن يُكرههم عليه؟

نعـم، مسـؤولية الرسـول ومَـن يحمل هـمّ الإسـلام أن يبلّغوا، فهـم يملكون الكلمة، ويملكون استخدام الأسلوب الأحسن، ويملكون تحريك الأجواء حول الآخرين كي يهتدوا فيؤمنوا.

الآية وحكم الرِّدّة

ولكن لا يمكن تجاوز الموضوع بهذه البسـاطة، فهناك أسـئلة كثيرة تُطرح في البين، ومنها:

س١: كيف نفسِّـر الضغط الذي يُمارَس على مَن آمن أو مَن وُلد مسـلماً كي لا يكفر؟! وكيف نوفّق بين دلالة الآيات وبين ترتيب العقوبات على المرتدّ؟

ج١: لا بـدّ من التفريق بين الإيمان والإسـلام، فالإيمان حالة فكرية وجدانية تنبـع من القناعة، أما الإسـلام فالتزام خارجيّ في السـلوك. فمـا دام الفرد ضمن حـدود المجتمع الإسـلامي فلا بـدّ لـه أن يحتـرم أنظمته ويلتـزم بقوانينه، ومن حـقّ المجتمع أن يحميَ نفسـه بوضـع القوانين الملائمة. ﴿قَالَـتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُـل لَّـمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُـلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُـمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٤]. فالأعراب ـ وفق الآية ـ قبلوا الدخول في المجتمع الإسلامي بمجرد الشهادتين

ولم يؤمنوا، وبالتالي إن التزموا بالقوانين العامة فسيكون لهم ما لسائر المسلمين المؤمنين، وأما مصيرهم في الآخرة فإلى الله، هو يحاسبهم على ما في قلوبهم. وإن خالفوا القوانين العامة فسيقع عليهم العقاب القانوني. وبالتالي فإنَّ مَن أراد أن يغيّر دينه ويرتدّ فهذا شأنه وهو يتحمّل وزره أمام الله في الآخرة، ولكن لا يحقّ له الإعلان عن ذلك والتجاهر به ضمن حدود المجتمع، وإلا سيكون مخالفاً للقانون.

حقّ المواطَنة

س٢: ولكن قد يحتجّ هذا الفرد بأنه مواطن، ويريد البقاء في وطنه وأن تكون له حرية الإجهار بمعتقده الجديد؟!

ج٢: هذا الإجهار مخالف لقانون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ـ على فرض وجودها ـ وهي قائمة على أيديولوجية وعقيدة محدّدة، ولها قوانينها التي تصوغها الشريعة المنبثقة من هذه الأيديولوجية، ومن جملة تلك القوانين مسألة الرِّدّة وأحكامها، وعلى أفراد المجتمع الالتزام بذلك القانون العام.

س٣: هل تخافون إلى هذه الدرجة؟ أليس هذا دليلاً على ضعف قناعاتكم؟

ج٣: نحن نعتقد بأنّ الإسلام يملك الإجابة المقنعة على كلّ الأسئلة والإشكالات، ولكن يُخاف على الناس البسطاء الذين لا يحملون رؤى واضحة حول الدين، كما يُخاف من عدم قيام المسؤولين على الشأن الدعوي بمسؤولياتهم بالصورة المطلوبة، ولذا لا بدّ من المحافظة على بعض أفراد المجتمع من الانزلاق في مهاوي الرِّدّة من خلال بعض التشريعات، وهذا هو شأن كلّ المجتمعات باختلاف أديولوجياتها.

س٤: فهل يُسمح لمسلم أن يناقش ويُظهر قناعاته بحرّية حول القضايا الدينية

والفكريـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافية ضمن المجتمع الإسـلامي ما لم يرتدّ؟

ج٣: نعم من حقِّ كلّ أحد أن يسـأل ويناقش، بل ويطرح آراءه في إطار علميّ بعيداً عن التهريج والسـباب والسـخرية والإسـاءة، وعليه أن يسمع للآخرين كما يريد من الآخرين أن يسـتمعوا إليه. وليس لأحدٍ التعرّض إليه بسـوء ما دام الأمر في هذا الإطار البحثي العلمي. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّـهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٦]. فإذا كان من حقّ المشرك أن يكون له الأمان، فكيف بالمسلم؟

تراث غني

وقـد نقلت كتـب الحديث حـوارات عديـدة جرت بيـن بعض الأئمـة عليهم السلام والزنادقة وغيرهم، وجرى بعضها عند البيت الحرام، وكان بعضها يتناول التوحيد الذي هو أساس العقيدة الإسلامية.. تمّ كلّ ذلك بكلّ حرية.

ثـم كيف يمكـن لِحَمَلَـةِ الرسـالة أن يعالجوا المشـكلات الفكريـة والعقيدية التي تدور في أذهان الآخرين ـ لا سـيما الشـباب ـ إن تمّ الحجْر على حرّيتهم في التعبير؟ بل هل يمكن الحجْر على العقول؟ وهل يمكن تكميم الأفواه، لا سـيما في هذا الزمن بكلِّ وسائل الانفتاح فيه؟

شركاء في الجريمة

الظلم من أكبر الخطايا وأشدّ الجرائم التي يرتكبها الإنسان، حتى كان الخلاص الدنيوي في نهايات المسيرة البشرية هو رفع الظلم وإقامة العدل على وجه الأرض، وعلى يدي الغائبَيْن المنتظَرَيْن: المسيح والمهدي عليهما السلام.

ثم سيكون رفع الظلم وإقامة العدل هو عنوان يوم الحشر والحساب، قال عزّ اسمه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[النساء:١٢٣ ـ ١٢٤].

الراضون بالظلم

إلاّ أنَّ المثير في بعض ما قرّره القرآن الكريم أنّه اعتبر الراضين بالظلم ـ ولو جاؤوا بعد قرون من الحدث ـ اعتبرهم شركاء في الجريمة على الرغم من المبدأ العادل الذي رسّخه بقول الله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الإسراء: ١٥].

فقد خاطب القرآن اليهود الذين عاشوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكأنهم هم الذين عاصروا من سبقه من الأنبياء فارتكبوا ما ارتكبوه من

جرائـم ومعاصٍ. قـال سـبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٤٩ ـ ٥٠].

وفي الحديث المأثور: «**العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم**»، والكلمة المأثورة عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به**».

فقد يرى البعض في ذلك انحرافاً عن المفهوم الذي تقدّمه الآية ١٥ من سورة الإسـراء في فردية المسـؤولية، لأنّ اعتبـار الراضي بالظلـم أو بالعمل المنحرف شريكاً للظالم والمنحرف، يعني تحمّل البريء ذنبَ المجرم.

رَفْعُ الشبهة

الحقيقة التي يجب أن ندركها بكلِّ وضوح، أنَّ الإسـلام يريد اقتلاع الظلم من جذوره الفكريّة والشـعورية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الرضا عبارة عن مشاركة ولو على المستوى النفسي في عملية الظلم، و«الرضا بالظلم يُعدّ جريمة معنويّة داخليّة، تشـوّه روحيّة الراضي، وتُعِدّه ليكون مشـروع ظالم مستقبلي، من خـلال ما يمثّله الرّضا من اعتبـار الظلم لديه حالةً طبيعية لا تثير في فكره أية حالة سلبيّة مضادة، بل تثير حالة شعورية إيجابيّة، الأمر الذي يجعله يمارس الظلم لدى أوّل فرصة للقوّة تمكنه من الظلم، كما أنها تحقق للظالم حمايةً معنويةً تحرس له ظلمه، إذ إنّها تحيطه بالمشاعر الحميمة التي تقوّي نفسيّته وتدعم موقفه. وهذا ما عبّر عنه الإمام علي عليه السـلام في نهج البلاغة، حيث قال: «**إنّ ما يجمع الناس الرضا والسخط. وإنما عَقَرَ ناقة ثمود رجلٌ واحد، فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرِضا**»».[فضل الله: تفسير من وحي القرآن].

العقوبة القانونية

وإذا كان جزاء الراضين بالظلم هو العقوبة الإلهية في الآخرة أو في الدنيا، وذلك بما ينزله الله من العذاب عليهم، أو على الرفض المعنوي لهم من قِبَل الناس، فيذمّونهم على ذلك، إلا أنّه لا يمتدّ إلى معاملتهم بما يعامل به الظالم من عقوباتٍ جزائيةٍ أو جنائيةٍ. وبالتالي فإنَّ الراضي بالقتل لا يُقتَل كما يُقتل القاتل، ولا يُرجم أو يُجلد الراضي بالزِّنا كما يحدث للزاني. وهكذا نجد أنَّ الجانب القانوني للمسألة على مستوى الشريعة ينسجم مع الآية، فلا يُحاسب الإنسان من ناحيةٍ قانونيّةٍ على أفكاره ومشاعره المنحرفة في ما يتّصل بالتعاطف مع الانحراف نفسياً من دون أن يشارك فيه، بل يكفي في ذلك الذمّ المعنويّ والإنكار النفسيّ والفكريّ.

جرائم المستضعفين

ومن هنا تكون المسألة أكثر وضوحاً في تحميل القرآن المسؤولية لأولئك الذين يشاركون في الجريمة تحت وطأة الاستضعاف وادّعاء انعدام الاختيارات، في محاولة للهروب من طائلة العقاب، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء: ٩٧].

اركعوا وأنيبوا

ينقل القرآن الكريم في سورة (ص) قصة الخصمين (وفي الأحاديث أنّهما من الملائكة تشبّها بصورة البشر) اللذين دخلا على النبي داود عليه السلام في ظرف مفاجـئ، إذ اقتحمـا عليه مكان عبادتـه وخلوته، ثم طلبا منه الحكـم في أمرهما، حتى إذا تحدّث أحدهما بادر النبي لإبداء رأيه، ثم أدرك أنّ ما فعله لم يكن صواباً، وأنَّ مسـؤوليته انطلاقاً من موقعه كنبيٍّ ومَلكٍ وحاكم أن يتريّث حتى يستمع إلـى الطرفيـن، فأسـرع فـي الإنابـة إلى الله والاستغفـار، قـال عزّ اسمه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبـأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَـوَّرُواْ الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَـى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْـطِطْ وَاهْدِنَآ إِلى سَـوَآءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَـذَآ أَخِـي لَهُ تِسْـعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِـي فِـي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُـؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعَاجِـهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَـاء لَيَبْغِي بَعْضُهُـمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُـمْ وَظَـنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْـتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَـرَّ رَاكِعًا وَأَنَـابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْـنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّـا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّـاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص: ٢١ ـ ٢٦].

لا محلّ للظلم

هـذه القصـة تعكس بكلِّ وضوح مدى حساسـية الإسـلام فيما يتعلّق بمسـألة الظلـم فـي إصدار الأحكام، بـل وحتى في مجرّد إبداء الرأي فـي خصومةٍ ما قبل التثبّت من طرفَيْ النِّزاع واستعراض الأدلّة التي يمكن لكلِّ طرف أن يقدّمها تأييداً لكلامهما، فوفق ما ذَكَره بعض المفسّـرين، فإنَّ النبي داود عليه السـلام لم يُصدر حكمـه القضائـي بعدُ، وإنما أبدى رأيه قبل أن يسـتمع إلى الطـرف الآخر، إلا أنّه انتبـه إلى أنَّ حتى مجرّد إبداء الرأي يحتاج إلى التثبّت، فضلاً عن إصدار الحكم، ولذا اسـتغفر ربّه وخرّ راكعاً وتاب عن ذلك. وينبغي التنبيه إلى أنَّ الإمامية تعتقد بـأنَّ مـا صـدر عن النبـي داود عليه السـلام لا يخدش بأصـل العصمة فيـه، إذ لم يرتكب ذنباً يُعاقَب عليه.

مؤثّرات سلبيّة

ولعلّنا يمكن أن نستشـفّ من الآيات أنَّ من العوامل المؤثّرة سـلباً في الإنسان وتدفعه للاستعجال في إبداء الرأي أو إصدار الحكم:

١ ـ فقدان التوازن النفسـي في لحظة ضعف إنسـانيّ، فالدخول المفاجئ على النبي داود في مكان ووقت، ما كان لأحد أن يدخل عليه فيه، يبدو أنّه أربكه بدلالة ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ﴾.

٢ ـ مبادرة الخصمَين لطرح مشـكلتهما مستنجدَين به مع تقديم مقدّمة حكيمة يبدو أنّها نالت إعجابه وجعلته يسكن إلى كلام الأول منهما حين شرح له القضية: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلى سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾..

٣ ـ هنـاك عوامـل قـد تتدخّل في تكوين الـرأي أو إصدار الحكم، كالمشـاعر العاطفية والتعصّب الدينيّ أو الطائفيّ أو العرقيّ أو القوميّ أو الوطنيّ وغير ذلك،

والأوّل منها أثّر في النبي داود فسارع لإبداء رأيه.

ولكن الله سبحانه هو العدل، ولا يرتضي من عباده إلاّ العدل، ولو كان الباغي هو الأقرب إليهم بعنوان ما.

الدفاع عن الخائنين

في سورة النساء آيات تعالج قضيّة أخرى في هذا الإطار، حين سرق مسلم من آخر، ووضع المسروقات عند شخص يهوديّ دون علمه، فأرادت عشيرته أن تبرّئه وتُلقي بالتهمة على اليهوديّ، واصطنعت مجموعة من الأدلّة الوهمية، وهي تتصوّر أنّ كون الخصم مسلماً سيدفع النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لاتّخاذ الحكم لصالحه. قال عزّ اسمه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[النساء: ١٠٥ ـ ١٠٩]. (خصيماً = مدافعاً ومحامياً).

لا مداهنة

إذاً، كانت المسألة على مستويَيْ النظرية والتطبيق حاسمة، ولا مجال للمداهنة والدفاع بالباطل عن الباطل، وإنْ كان مَن صدر عنه من المسلمين، لأنَّ الحُكم العادل هو الأساس، والعدل شعار الإسلام. والعلماء والسياسيّون ورجال الإعلام ـ وفي هذه الأجواء المليئة بالتوتّر ـ بحاجة إلى مراجعة وتقييم أدائهم

وفـق القيم السـابقة، وكمـا قال رابع أئمـة أهل البيـت عليهم السـلام الإمام زين العابديـن: «**العصبيـة التي يأثم عليها صاحبُها أن يرى الرجلُ شـرارَ قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يُعين قومَه ـ لأنّهم قومه ولأنّه يتعصّب لهم ـ على الظلم**».

رسالة قصيرة

أتمـنّى علـى كـلِّ محـام أن يضع أمامه لوحة تتضمن قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْـتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَـهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**﴾[النساء: ١٥ ـ ١٧].

❁ ❁ ❁

بين الإبداع والابتداع

مفهـوم الاجتهاد والإبـداع واضح بشـكلٍ إجماليّ لكثير مـن الناس، وكذلك بالنسـبة إلى مفهوم البدعة، ولكن يقع الارتباك عند السـعي للتمييز بينهما عمليّاً، فما هو إبداع قد يتّهمه البعض بأنّه ابتداع، وما هو من البدع قد يعتبره البعض أمراً خلاّقاً وجديراً بالأخذ. وليسـت القضية جديدة على الساحة الفكريّة والفقهيّة، إذ لها جذورها التاريخية. وبالتالي كيف يمكن أن نميّز بين الاثنين؟

البدعة في القرآن

في القرآن الكريم أربع آيات استعملت كلمة (بِدَع) باشتقاقاتها، والآية الوحيدة التـي لها علاقة بالموضوع هي قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾[الحديد: ٢٧]. ومعنى ذلك أنّهم ابتدعـوا رهبانيـةً لـم يكتبها اللـه تعالى عليهم، إمـا من حيث المبـدأ أو من حيث الطريقة والأسلوب المتّبع، ومن الواضح أنّ الآية قد جاءت في موقع الذمّ.

البدعة في السُّنة

أما إذا جئنا إلى الحديث الشريف، وجدنا عدّة محاور تعرّضت لها النصوص:

المحـور الأوّل: رفض البدعة، كما في الحديث المشـهور بين المسـلمين عن

رسـول الله صلى الله عليه وآله سـلم: «**كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار**». وقد ورد هذا الحديث أو ما بمضمونه عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام .

المحور الثاني: قطيعة أهل البدع، كما في الصحيح المسـند إلى عمر بن يزيد، عـن أبـي عبد الله عليه السـلام أنّه قال: «**لا تَصحبوا أهل البدع، ولا تجالسـوهم، فتصيـروا عند الناس كواحد منهم**». قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسـلم: «**المرء على دين خليله وقرينه**».

المحـور الثالـث: مواجهة البدع وأهلهـا، كما في صحيح داوود بن سـرحان، عن أبي عبد الله عليه السـلام قال: «قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسـلم: «إذا رأيتـم أهـل الريـب والبـدع من بعـدي فأظهِـروا البـراءة منهم، وأكثِـروا من سـبّهم، والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم، كيلا يطمعوا في الإفساد في الإسلام، ويحذرهـم النـاس، ولا يتعلّموا مـن بدعهم، يكتـب الله لكم بذلك الحسـنات، ويرفع لكم الدرجات في الآخرة». ولكن ذكر الإكثار من السبّ بل البهتان، بمعنى جواز الكذب عليهم لتشـويه صورتهم جعلت في المتن تعارضاً مع مبادئ قرآنيّة وأخلاقيّـة، مما دفـع بعض المحقّقين إلى الشـكّ في صحة هـذا الخبر وإن صحّ السـند. فمعارضة نـصّ أو ظاهر القـرآن توجب طرح الحديث ولـو كان صحيح السند. وهناك أحاديث أخرى تحثّ على المواجهة ولكن ليس بهذه الصورة.

نظريات للتمييز

هناك عدّة نظريات طَرَحها المحقّقون كمعايير للتمييز بين البدعة والإبداع:

المعيار الشخصاني: وذلك بأن يكون المعيار هو صاحب القضيّة أو المقولة، فـإن كان ممّن لا يملك حـقّ إبداء الرأي باعتباره غيـر متخصّص في هذا المجال فسيكون رأيه بدعة، بينما لو كان مجتهداً في الفقه الإسلامي مثلاً وقدّم رأياً فقهيّاً

جديداً، فهنا لا يكون كلامه بدعةً، مهما كانت نظريّته غريبة.

ويمكن أن يُثار أكثر من إشكال ورد على هـذا المعيار، وعلى الأقل يمكن أن يُقـال بأنّنـا لا نشكّ في ضرورة حمل صاحب الفكرة مؤهّلات في شخصه، لكن فلنفترض أنَّ غير المؤهل قال بنظرية ضمن أدلّة طرحها، فحكمنا ببدعيّتها، ثم جاء المجتهد وقال بها، فهل يصبح ذلك الرأي إبداعاً بعد أن كان ابتداعاً؛ لأنّ صاحب الـرأي تغيّـر؟! من الصعب قبول ذلك، ولعلّ في مـا رُوي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام إشارة إلى ذلك حيث قال: «**لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال**».

المعيار التاريخي: فإن وجدنا أنَّ هذه المقولة الجديدة لها جذور تاريخياً على مستوى آراء أصحاب الاختصاص، فعندها سـنعتبر المضمون بدعياً، بخلاف ما لو وجدنا لها قائلاً. ووفقاً لهذا لا يعود مضمون البدعة هو المهمّ من حيث وجود دليـل عليـه أو عدم وجود دليـل، ولا يعود المهم أن يكون صاحـب البدعة عالِماً مفكّراً أو يكون نكرةً جاهلاً.

إلاَّ أنّ هذا المعيار يواجه إشكالات عدّة، من بينها:

مـاذا لو أقـام أصحاب المقولة الجديدة الدليل المحكم من الكتاب والسُّـنّة، فهل ستبقى بدعة؟

ثـم إنّنـا بهذا المعيار سـنحكم على كثير مـن فقهائنا المتقدّميـن والمتأخّرين بالابتداع إذ جاؤوا بنظريات لم يقل بها مَن سَـبَقهم من العلماء. ثم ما هو الفاصل الزماني الذي نعتبر أنّ ما جاء بعده بدعة، وما قبله إبداع؟

كمـا إنَّ الأخـذ بهذا المعيار سـيدفع إلى إغـلاق باب الاجتهـاد إلاّ في ضمن مقولات المتقدّمين، وهذا مرفوض حتماً.

المعيـار العرضي: بأن نعرض المقولة على الكتاب والسُّـنّة، فـإذا لم يَرِد فيها

نصّ بخصوصه في الكتاب والسُّنّة، ولم يشمله عام أو مطلَق فيهما، فهو إذاً بدعة.

ولكـن المشـكلة في هذا المعيـار أنّ لكلّ مجتهد تفسـيراً للآيـة أو الحديث، وعليه سيختلف التقييم، وبالتالي سنرجع إلى المربع الأول.

المعيار التنوّعي: بأن يتمّ اكتشاف البدعة عبر سُبُل ثلاثة:

أن يَـرِدَ نصّ قرآنـي أو حديثي مُعتبَر من حيث السـند والدلالة، ويدلّ على أنّ القضيّة الفلانية بدعة أو أنّ فلاناً مُبتدِع.

أن لا يقيم صاحب المقولة نظرية تفسيرية تبرّر نسبة هذا الرأي إلى الدين.

أن نعلم أنّ صاحب هذه المقولة يتعمّد إقحام ما ليس من الدين فيه بنيّة خبيثة.

الأسلوب الأمثل

وممّـا سـبق تتبيّن حساسـة الموضـوع وتداخلاتـه، الأمـر الذي يدفعنـا ـ من بـاب الالتزام بالقيـم والأمانة العلميّة ـ إلى التريّث فـي اتّهام أصحاب المقولات الجديـدة بالبدعيّة، وضرورة إدارة عمليّة الاختلاف في الداخل الإسـلامي برويّة مـع الحفاظ على حقّ الاختلاف، بشـرط أن لا يؤدّي هـذا الاختلاف إلى التنازع المضعِف للأمّة.

ولنلاحـظ هذا الخبر الذي صحّحه السـيد الخوئي رحمـه الله وغيره، عن أبي العبـاس البقباق، قال: «تدار ـ تذاكـر ـ ابن أبي يعفور ومعلّى بن خنيس، فقال ابن أبـي يعفور: الأوصياء علماء أبرار أتقياء، وقال ابن خنيس: الأوصياء أنبياء. قال: فدخلا على أبي عبد الله عليه السـلام، قال: فلمّا اسـتقرّ مجلسهما، قال: فبدأهما أبو عبد الله عليه السـلام، فقال: **يا عبد الله، إبرأ ممّن قال إنّا أنبياء**». فعلى الرغم من هذا البون الشاسـع بين رأيَي اثنين من أصحاب الصادق عليه السـلام في فهم

مسألة الإمامة والوصيّة، لكن مع ذلك كانا يتذاكران ويتجالسان، ولم يطبّق الإمام على أيّ منهما مبادئ العلاقة مع أهل البدع، فحريّ بنا أن نتعلّم من ذلك درساً مهمّاً بأن لا نفسّق أحداً ولا نجهّله ولا نقصيه، بل نحترمه ونمارس النقد عليه، كما يمارس هو بنفسه النقد علينا، وأن يكون شعارنا مع مَن يخالف هذا الأسلوب هو دلالة قوله تعالى: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[المائدة: ٢٨].



عليٌّ والحقّ

يمثّل الحقُّ بالنسبة إلى الإمام عليّ عليه السلام هدفاً من أسمى الأهداف التي سعى لتحقيقها ما أمكنه ذلك، فكان شديداً في ذلك، لا يداهن، ولا يتنازل، لأنّ مسألة الحقّ عنده هي مسألة حياة، فإذا سلبت الحقّ من أحد فكأنّما حياته تسلِبُ.

وهذا ما ترعرع عليه الإمام علي عليه السلام في أوج صراع الحقّ مع الباطل وقَهْرِ المستكبرين للمستضعفين في مكة المكرمة، فكانت أمنية المشركين أن يتنازل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو عن شيء بسيطٍ ممّا كان يدعو إليه، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم: ٩]، إلا أنّ رسول الله صَمَد، ولم يتنازل، وقاوم ولم يمالئهم حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً.. وهكذا عرف علي عليه السلام موقع الحقّ في الحياة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الحجر: ٥٨].. وهذا ما شخّصه النبي الأكرم في ربيبه علي(ع) فقال فيه: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ، يدور معه حيثما دار».

الهداية للحقّ

وقد تحدّث أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان هذه العلاقة اللصيقة بينه وبين الحقّ، فقال: «بنا ـ أيّ بمحمد وآله ـ اهتديتم في الظلماء، وتسنّمتم العلياء،

وبنا انفجرتم عن السرار ـ كنتم في الظلمات فصرتم إلى ضياء ساطع ـ... أقمت لكم على سُنَن الحقّ في جواد المَضَلّة ـ فالحياة كالأرض المليئة بطرق الضلال، وللحقّ من بينها طريق واحد، وقف عليه علي عليه السلام ـ حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون ـ لا تجدون ماءً ـ غَرُبَ ـ غاب ـ رأي امرئ تخلّف عني، ما شككت في الحقّ مذ أُريته.. اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل».

وهكذا كان عليّ عليه السلام دائماً على مفرق الطريق بين الحقّ والباطل ليُنقذ مَن أراد النَّجاة، وليُعيد أيضاً الحقّ إلى صاحبه متى ما أُخذ منه بالقوّة والاستكبار وهو القائل: «الذّليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقَّ له، والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقَّ منه». وقال عليه السلام: «فلأنقبنّ الباطل حتى يَخرجَ الحقُّ من جنبه».

طَلَبَ الحقّ فأخطأه

وقال عليه السلام: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»، فهو يطالب بالتبصّر في المواقف وردود الأفعال عند الاختلاف، فليس الموقف واحداً مع كلِّ أحد، بل الدوافع تمثّل إحدى المقوّمات التي تحدّد طبيعة الموقف وردّ الفعل.. ولكن المشكلة أحياناً كثيرة هي أنّنا نُشَخْصن خلافاتنا العامّة ذات البُعد الدينيّ أو المذهبيّ أو السياسيّ وأمثالها.. وشخصنة هذه الخلافات ستجرّنا إلى اتخاذ المواقف الخاطئة وردّات الفعل العنيفة، لأنّ الإنسان بطبعه يحبّ ذاته أكثر مما يحبّ أيّ شيء آخر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٣ ـ ٣٧].. هذه هي الصورة الحقيقيّة لمشاعر الإنسان.. فنفسه تأتي في المرتبة الأولى، وبالتالي إذا شخصن الإنسان خلافاته في القضايا العامة فإنّه سيتطرّف في مواقفه، ويحيد عن الحقّ، لأنّه يريد أن ينتقم لنفسه وكبريائه، أو يريد أن يثبت أنّه الأقوى أو الأفضل.

صُوَرٌ متعدّدة

وهذا الأمر نلاحظه في العلاقات الاجتماعية، ففي الأسـرة قد يكون اختلاف الأطباع من عوامل الخلاف بين الزوجين، أو قد يكون ذلك للطريقة الخاطئة في إدارة الأسـرة، وعلى كلٍّ حال فالمسـألة ليسـت موجّهة للطرف الآخر بشخصه، ولكنّـه متى ما اعتبرها موجَّهة إليه بشـخصه، وأنّها مسـألة كرامـة مجروحة وعزّة مفقودة فإنّها ستتحوّل إلى ساحة نزاعٍ عنيف قد يدمّر هذه الأسرة.

وهكـذا هـو الحـال فـي الخلافـات السياسـيّة فـي دائـرة التكتّـل السياسـيّ الواحـد حين تبرز الانشـقاقات، فيشـكّل كلّ طـرف تكتّلاً صغيـراً بمفرده تحت شـعار العـودة إلـى المبـادئ ومـا إلى ذلـك، بينما قـد يكـون الدافع فـي حقيقته هـو الـذات. وكذلك هـو الحال فـي الحراك السياسـي حيـن يتّخذ هـذا الطرف موقفـاً قـد يكون خاطئـاً، ولكنّه اتّخذه عن حسـن نيّة وهو يطلب الحـقّ فأخطأه، ولكنّنـا نتعامـل معـه كمـا نتعامـل مع مَـن يطلـب الباطل ويريـد الباطـل ويعمل للباطـل.. لأنـي أعتبـر نفسـي مـع الحـقّ، فكيف لـه أن يأخـذ موقفـاً مغايـراً لِما اخترتـه أنـا.. وليسـت المسـألة فـي حقيقتهـا: لِـمَ يأخـذ موقفـاً مغايـراً للحـقّ! وعلى ذلك فَقِس الخلافات الدينيّة والمذهبيّة والفقهيّة التي قد يتعصّب لها الإنسان ويُعـادي مـن خلالها الآخرين حتـى أولئك الذيـن طلبوا الحـقّ فأخطأوه، حيث تكون نواياهم سليمة، ولكن مشكلتهم أنّهم لم يهتدوا إلى الحقّ.. إلاّ أنّ المسألة تبقى غالباً: كيف لهم أن يختاروا غير ما اخترتُ أنا!! كيف لهم أن يخالفوني أنا!؟ ولـكلٍّ واحدٍ منّا أن يُراجع نفسـه فـي منطلقات مواقفـه وردود أفعاله تجاه الآخر الذي يختلف معه.. إنّها ليست دعوة إلى التساهل في أمر التمسّك بالحق، ولكنّها دعوة لتجريد المواقف عن الذاتيات، لأنَّ شخصنة مسألة الحقّ والباطل يحيد بها عن الحق.

تصحيح مفهوم النقد

حـبّ الإنسـان أو تعصّبه لنفسـه أو لسـواه يدفعه للإفـراط في الحساسـية من النقـد.. وقد تسـاعد على ذلك حساسـية الدائرة التي يرتبط بهـا النقد، كأن يكون نقداً لشـخصيّة يقدّسها، وإن لم تكن مقدّسـة في واقعها. فما هو الموقف السليم من النقد؟

المفهوم اللغوي

للنقد لغويّاً أكثر من معنى، وما يهمّنا معنيان:

التمييـز بيـن الجيّـد والرديء مـن الدراهم والدنانيـر، فيُقال: نقـدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت المزيّف منها.

العيـب والثلـم والتجريـح، فيُقـال: نقـدت رأسـه بإصبعـي إذا ضربتـه، وفي الحديث: «**إن نقدتَ الناس نَقَدوك وإن تركتهم تركوك**». أي إن عِبتهم أو اغتبتَهم قابلوك بمثله.

وغالبـاً مـا نتّجه في تصوّرنا لمعنـى النقد إلى المعنى الثانـي، فنعتبره حالة من ملاحقـة العيوب وتصيّدها وفضحها، ولهـذا اعتُبر النقد في كثير من المجتمعات مظهـراً مـن مظاهـر العـداوة والبغضاء وسـبيلاً من سـبل الإهانـة والتحقيـر. أمّا

المعنى اللغوي الأول، فلعلّه الأنسب الذي يجب أن نعمل لترسيخه في وعي الناس، وهو الأَلْيَق بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية، وفي اصطلاح أكثر المتقدّمين من ناحية أخرى، فإنّ فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم.

الموقف الإسلامي

وقد اعتبر الإسلام أنّ النقد إن كان بمعنى التصيّد وفضح المعايب فهو أمرٌ مرفوض، فللإنسان حرمة، وليس لأيِّ شخص أن يقتحم حياته الخاصة دون رضاه، أو يعتدي على أسرارها دون إذنه، ولذا حرّم التجسّس ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات: ١٢]، وفي الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يؤاخي الرجلُ الرجلَ على دينه، فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعيّره بها يوماً ما**». بل نجد المنع في بعض النصوص من هتك الإنسان لحرمة نفسه من خلال التحدّث عن أسراره الخاصة بما يسقط شخصيّته، وفي الحديث: «**إذا بُليتم فاستتروا**». وأما النقد بالمعنى الآخر، أي بمعنى التقييم والتمييز بين الجيّد والرديء فالحكم فيه يعتمد على الدافع، فإن كان الدافع هو:

التعيير والتحقير والإهانة: فيدخل في الدائرة السابقة، وتشمله نصوصها.

النّصح والإرشاد: فيدخل في قول الامام جعفر الصادق عليه السلام: «**المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله**»، وفي هذا وغيره من النصوص تشجيع على النقد بهذا المفهوم وبهذا الدافع، لأنّ أخاك بمنزلة نفسك، وهذا ما أكّدته الآيات القرآنيّة العديدة، كقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾[النور:٦١]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ**

تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٨٤ـ ٨٥]. ثـمّ إنّ انحراف الفرد يترك أثره الكبيـر على اسـتقامة المجموع كنتيجـة طبيعية للارتباط العضـوي بين المجتمع وأفـراده.. ولـذا فإنّ علـى الطرف الآخر تَقَبُّـل النقد بهذا المفهـوم وبهذا الدافع، وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام علي زين العابدين عليه السلام: «**ووفّقني لطاعة من سدّدني ومتابعة من أرشَدَني**».

التقييم الشخصي

فالإسـلام لا يريد للمؤمن أن يكون سـاذجاً سـطحيّاً في نظرتـه إلى الآخرين، لأنّ ذلـك قـد يورّطه فـي أمور عديـدة، وقد يربـك حياته وحياة الآخرين بسـبب ذلك، ولذا فهو بحاجة إلى التقييم القائم على أسـس سليمة، وهذا ما نلاحظه في النـص التالي المرويّ عن الإمام زين العابدين عليه السـلام حيث قال: «**إذا رأيتم الرجل قد حَسُـنَ سمته وهديه، وتماوت في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرّكـم، فمـا أكثر مَـن يُعجزُه تناولُ الدنيـا وركوبُ الحرام منهـا لضعفِ بُنيته، ومهانتـه، وجبـن قلبه.. فنصب الدّيـن فخّاً لها، فهو لا يزال يختـلّ الناس بظاهره، فـإن تمكّن من حرام اقتحمه...**»... هذا النص الرائع في تحليل سـلوك الآخر، لا بغرض التعيير، بل لحسن التقييم.

ثلاث رسائل

الرسـالة الأولى: للقائمين علـى القانون وتنفيذه: النقد بمفهومه السـليم جزء من مسـاحة الحرّية التي ننعم بهـا، ومعالجة الأخطاء والتجـاوزات لا يكفي فيها اسـتخدام القانـون وتنفيذ العقوبات ومـا إلى ذلك، بل لا بدّ مـن أن يكون للتربية وللإعلام دورهما في ترسـيخ المفاهيم والممارسـات الصحيحة، لأنّ الاقتصار

على القانون والعقوبة قد يُعطي نتائج عكسية، وقد يذهب ضحية ذلك أناس لم نرفعهم إلى مستوىً من الوعي يمنعهم عن الوقوع في المحظور، بل لربما نشجّعهم على الخطأ حين يتمّ التعامل مع الأمر بانتقائية واضحة.

الرسالة الثانية: لمن يستغلّون القانون لتصفية الحسابات: كفاكم عبثاً، جمّدوا أجنداتكم الخاصة التي توظّفونها للانتصار لمذهبيّاتكم وانتماءاتكم، وللانتقام من خصومكم السياسيّين، ولفرض كلمتكم على الآخرين بالأساليب العنتريّة، فكلّ المؤشّرات والدلائل تؤكّد أن الجميع سيخسر، ولربما تكون الخسائر غير قابلة للجبران.

الرسالة الثالثة: للمستفيدين من مساحة الحرّية في أيِّ بلدٍ: للكلمة مسؤوليّة، وللتعبير آداب وحدود، وللنقد أخلاقيات، وللظروف حُكم فيما نقول وفيما نفعل، فلكلِّ مقام مقال، ورُبّ كلمة سَفكت دماً حراماً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ**». وليس في هذا مطالبة بالسكوت عن الحقّ، ولكن بالكلام بعد التدبّر والتعقّل.

❁ ❁ ❁

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ... إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٠ ـ ٢٧]

بهذه الروح الرساليّة انطلق هذا النموذج الإنسانيّ في تحمّل مسؤوليّته تجاه ربّه ومجتمعه، بكلِّ عزيمة وقوّة وإصرار وعطاء، ولم يُثنه عن ذلك صدود القوم عن الاستجابة لكلامه، كما لم يُعِر أهمّية للخسائر التي سيتكبّدها على مستوى الذات، ما دام الأمر مربحاً على مستوى العلاقة مع الله سبحانه والمصير في الآخرة، ولذا استمرّ حتى الرَّمق الأخير، وهدأ جسده بموته، ولكن روحه ما زالت في عنفوانها، وقلبه ما زال متعلّقاً بمجتمعه المستكبِر على الحقّ، فأطلق تمنّياته الأخيرة التي لا ترتبط بذاته وقد حاز على رضوان الله بل بقيت روحه متعطّشة لهداية قومه الذين لربما كانوا هم مَن قتلوه ظلماً.. ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

فضل الله الرساليّ

وكلّما تلوتُ هذه الآيات المباركة تمثّلتُ الفقيه الراحل والمفكّر الإسلاميّ الكبير السيد محمّد حسين فضل الله الذي نعيش الذكرى الثانية لرحيله في

علاقته بالله سبحانه والتي من خلالها كان يرسم منهجه في الحياة ويستمدّ قوّته في العطاء، وفي روحيّته العالية التي عرفه بها كلّ مَن عايشه أو تعامل معه عن قرب، وفي عطائه الذي لم يهدأ حتى وهو على فراش المرض، لأنّه كان عطاءً خالصاً لله سبحانه ومن أجل الناس الذين كان يعاني بمعاناتهم، ويعيش آمالهم، ويعمل من أجل أن يأخذ بأيديهم ما أمكن.

فضل الله المجدِّد

لم يركن المرجع الراحل فضل الله على المستوى الفقهيّ والفكريّ إلى جهود مَن سبقه بحيث يعيش التجديد في فهم القرآن وفي المعارف الإسلامية والتشريعات الفقهيّة فقط في فلك مَن تقدّموا عليه، ممّن قدّموا للإنسانية ما قدّموا مأجورين بإذن الله تعالى، لأنّه كان يعتبر أنّ طبيعة الحياة تفرض التجديد لا بمعنى التمرّد على الأصول والأسس، بل بمعنى إعادة قراءة التراث من خلال معطيات الواقع والتطوّر الفكريّ الإنساني.. ولذا تميّز بتحرّره في فتاواه حتى عن الإجماعات التي لم تبلغ مستوى الإلزام في الأخذ بها، ما دام الدليل قائماً على ما هو مخالف لها.. بينما يتردّد آخرون في مخالفة أساتذتهم في الرأي، أو في مخالفة ما هو مشهور الفقهاء.

وإذا كان البعض قد أخذ عليه ذلك، فإنّ الكثيرين ممّن يعانون أو يعايشون معاناة الناس في التعامل مع الحياة في صورتها المنفتحة اليوم، على الصُّعُد المختلفة، يدركون أهمّية جهوده التجديديّة في تقديم الفقه الإسلامي المنبثق في أصالته من القرآن والسُّنّة، والمتناغم مع مستجدّات العصر، بما تُشرق معه صورة هذه التشريعات، ويرفع من خلالها الحرج عن الناس في تعاطيهم مع مناحي الحياة المختلفة.

ولـم يـأتِ ذلك من فراغ، كما لم ينطلق من خلال تـرفٍ بحثي في قضايا قد لا تكون لها تطبيقات عمليّة خارجيّة، بل جاء من خلال إحساسه بمسؤوليّته الرسالية ومن موقعه المرجعيّ الذي يحتّم عليه أن يقدّم الفقه الإسلامي الذي شرّعه الله:

لا لتعقيـد حياة الناس، بل من أجل أن يبعث فيهم الحياة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْـتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[الأنفال: ٢٤]، فالأحكام ليست هي الغاية، والعبادات ليست هي المطلوبة في ذاتها كي يستغرق فيها الإنسان آلياً، فيتمسّك بجسدها ويقتل روحها، بل الهدف هو تحقيق الحياة الطيّبة على الصعيد الفـرديّ والاجتماعـي والأُخرويّ، وعلى الفقيه أن يأخذ ذلك في الحسـبان وهو يستنبط الأحكام.

ولأنَّ التشـريعات جـاءت من أجل أن تخفّف من معانـاة الناس وتحرّرهم من القيود التي اصطنعوها لأنفسهم: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُـمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُـمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[لأعراف: ١٥٧].

ولأنّ فيهـا مـن السَّـعة والمرونـة مـا يرفـع الحـرج عـن النـاس بعناويـن مختلفـة، تمكّـن الفقيـه الـذي عايش عـن قـرب وانفتاح حيـاة النـاس وتواصل معهـم بشـكلٍ يومـيّ في سِـلمهم وحربهم.. فـي سَـعتهم وضيقهم.. فـي غِناهم وفقرهـم.. فـي صحّتهـم وسـقمهم.. فـي سـلامتهم وإعاقاتهم.. فـي علاقاتهم الشـخصية والسياسـية والأمنيـة والاقتصاديـة والثقافيـة.. تمكّنـه مـن أن يـدرك المفهـوم العملـيّ لقـول الله سـبحانه: ﴿**مَا يُرِيـدُ اللَّـهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُم مِّـنْ حَرَجٍ وَلَكِـن يُرِيـدُ لِيُطَهِّرَكُـمْ وَلِيُتِـمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ**﴾[المائدة: ٦].

لقـد مثّـل فقيهنا الراحـل المرجعيّة الإسـلامية الكبيرة التي لم تنغلـق على ذاتها،

ولـم تتقولب في العناوين المذهبيّة، ولم تحبس نفسـها في أُطُـر العصبيّات، لأنّه كان يكـرّر دائمـاً ما آمن به منذ أن انطلق في حياتـه العلميّة والعمليّة أنّه يحمل همّ الإسلام وهمّ الإنسان، وأنّه سيعمل من أجل ذلك، ولن تأخذه في الله لومة لائم، فعمل وصبر وأعطى حتى رجع إلى ربّه، وكان يكرّر: «وأقول كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم مخاطباً الله عز وجل: **«إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي»**، فحساباتي ليست مع الناس، بل مع ربّ الناس، وأرجو أن تكون حساباتي معه موضع رضاه وقبوله».

❁ ❁ ❁

تاريخيّة السُّنة النبويّة

تمثّل ذكرى المبعث النبوي الشريف محطّة من محطّات التفكّر فيما قدّمه النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم للبشرية، ولخّصته الآية المباركة: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤]. فتلاوة القرآن بما يشمل مفاهيمه وأحكامه، ثم التزكية الروحيّة والسلوكيّة، وتعليم الناس الحكمة في الحياة، وتعليم الكتاب الذي لربما يشير إلى ما تمثّله سُنّته الشريفة باعتبارها ما كتبه الله على الناس وأوحاه إلى النبيّ خارج إطار القرآن، هي العناوين الرئيسية فيما حمله النبي وأدّاه من مسؤوليّته الرساليّة.

وبالتالي غدت السُّنّة الشريفة مصدراً من مصادر التراث العقدي والفقهي والأخلاقي والمعرفي لاسيما وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧].

المراد من التاريخيّة

ولكن هل من الصحيح أن يتمّ التعامل مع السُّنّة بطريقة واحدة، بحيث تكون بأجمعها قاعدة عامّة على مرّ الزمان؟ أم لابد من التمييز بين رواية

وأخرى؟ وهذا البحث يُعَنْوَن أحياناً بـ(تاريخيّة أو تاريخانيّة السُّنّة). نحتاج بدءاً إلى أن نميّز بين ثلاثة معانٍ لمفهوم (تاريخانيّة السُّنّة) في الاصطلاح المتداول اليوم:

التحقّق في التاريخ: بمعنى أنّه شيء حادث وليس بقديم كقِدم الله. ولتقريب المعنى نستذكر فتنة خلق القرآن، فمن قال إنّ القرآن قديم منذ الأزل كما أنّ الله قديم، فهو لا يقول بتاريخانية القرآن، والذين يقولون إنّه حادث وليس بقديم فإنّهم يقولون بتاريخانيّته. ومن المتّفق عليه ألا يقول أحد إنّ السُّنّة ليست تاريخانيّة بهذا المعنى، فهي حادثة حتماً.

التاريخية المعرفية: أي أن ندرس المحيط التاريخي للنصّ الذي هو من السُّنّة، ونفهم النص من خلاله. ففي زمن صدور السُّنة كانت الخمرة تسمّى قهوة، ولذا ورد النهي عن شربها، فحرّم عدد من الفقهاء شرب البن في زمن لاحق بناءً على ذلك، بينما الدراسة التحقيقية للتطوّر التاريخي لهذا المصطلح عند العرب يكشف أنّ تسمية البن بالقهوة لم تحْدُث إلاّ في حدود القرن العاشر الهجري (١٥ ميلادي)، حيث اعتبرت (قهوة الصالحين) أي خمرتهم، وهم قوم من المتصوّفة كانوا يشربون القهوة ليسهروا الليل للتعبّد.. ولذا اختلط الأمر على مَن أفتى بالحرمة.

التاريخيّ بمعنى الموقّت: والمقيّد بالظرف التاريخي الذي تحقّق فيه. وهو مرتبط بالعنوان السابق نحو ارتباط. وهذا هو ما نريد أن نبحث فيه.. فهل في السُّنّة ما هو تاريخيّ، أي مؤقّت زال بتغيّر الزمان والمكان؟ لو عدنا إلى النصوص سنجد فيها ما يدلّ على ذلك، وفي البين عدّة أمثلة منها ما جاء في مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الفارُّ من الطاعون كالفارّ من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف**». هنا يصطدم النص مع مجموعة من العناوين الصحّية والدينيّة كعدم إلقاء النّفس في التهلكة وغيرها، وقد حاول البعض أن

يعتبـر الأمر الـوارد في الخبر نوعاً مـن الحَجْر الصحي.. ولكـن وضع النص في سـياقه التاريخـي يحلُّ المشـكلة، ولا يضطرّنا إلـى فهم خاطـئ وبالتالي إصدار فتـوى خاطئـة كما وقع فيه البعض. وهـذا ما بيّنه الإمام الصادق عليه السـلام في الخبـر الصحيح الذي رواه عنه الحلبي قال: «سـألت عن الوبـاء يكون في ناحية المصر فيتحوّل الرجل إلى ناحية أُخرى، أو يكون في مصر فيخرج منه إلى غيره؟ فقال: «لا بأس، إنّما نهى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسـلم عن ذلك لمكان ربيئـة ـ قوة مراقبة عسـكرية ـ كانت بحيـال العدوّ، فوقع فيهم الوبـاء فهربوا منه، فقال رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسـلم: الفارّ منه كالفارّ من الزحف، كراهية أن يُخلُوا مراكزهم». فلو كنّا نحن والنص الأول لأفتينا بحرمة الهروب من الوباء، ولكن عندما عرفنا أنّ النهي مقيّد بظرف تاريخي محدّد انحلّت المشكلة.

نظرية الشهيد الصدر

ولكن بما أنّنا لا نملك دائماً نصوصاً من هذا القبيل تُوضِح الظرف التاريخي، لنقيّـد الحكـم بذلك الظـرف، وبالتالي فإنّنا نحتـاج إلى ما يدلّنا علـى ذلك، لأنّ الأصل هو ثبات النص وديمومة الحكم، أما تاريخانيّته فاستثناء. وقد عمل بعض فقهائنـا مـن أجل وضع أسـس للتمييز بين السُّـنّة في هذا الإطـار، ضمن نظريّات عديدة.

وقـد طرح السـيد الشـهيد محمد باقـر الصـدر (ت ١٩٨٠) نظريـة (الأحكام الحكوميّـة الولائيّة)، معتبـراً أنّ بعضاً مما صَدَر عن النبـي الأكرم صلى الله عليه وآلـه وسـلم إنما صَـدَر لا باعتباره نبيّاً مبلّغاً لرسـالة، بل باعتبـاره حاكماً فرضت الظـروف الموضوعيّـة صدور ذلـك الحكم منه، لا أنّ ما صدر عنـه يمثّل الحكم الشـرعي الواجب تنفيـذه في كلِّ زمان ومكان. وضرب علـى ذلك عدّة أمثلة من

قبيل تحريم النبي (ص) على أهل المدينة أن يحتفظوا بما يفيض عندهم من مياه السقي. وقد اعتبر السيد الشهيد أنّه إجراءٌ ولائيٌّ مؤقّت حسب مقتضيات الظروف، لأنّ مجتمع المدينة كان بحاجة شديدة إلى إنماء الثروة الزراعية والحيوانية، فألزمت الدولة الأفراد ببذل ما يفضل من مائهم وكلأهم للآخرين، ويمكن للحاكم أن يصدر منعاً مجدّداً مع تجدّد ذات الظرف.

خطأ التاريخيّة المطلقة

وقد بالغ البعض بالقول بتاريخانية السُّنّة كلّها، وهذا مجافٍ للصواب، وتعطيل مذموم للشريعة التي تمثّل السُّنّة أحد أهمّ أركانها.

وخلاصة القول إنّنا عندما نتعامل مع نصوص السُّنّة نحتاج إلى التروّي في الحكم عليها بالصحّة أو البطلان عندما نجد فيها ما قد يتعارض مع بعض الحقائق العلميّة مثلاً.. كما يحتاج الفقيه إلى التروّي في استنباط الحكم الشرعي منها، فمن الروايات ما صدر وقُيّد بظرفه التاريخي، ومنها ما صدر ليكون قاعدة عامة.

علائم الظهور

عرفت الإنسانية البشارات ببعض رجالاتها عبر التاريخ، ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن البشارة بنبيّنا الأكرم صلّى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال: ﴿وَاذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ انِّي رَسُولُ اللَّهِ الَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمهُ أَحْمَدُ﴾[الصف: ٦]، ولذا كان بنو إسرائيل ينتظرون بعثته ويترقّبون علائم ظهوره كما حكى ذلك القرآن: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[البقرة: ٨٩]. وينتظر المسيحيّون نزول السيّد المسيح عليه

السـلام لتكون المعركة الفاصلة بين الحقّ والباطل المعروفة باسـم (هرمجدون) كما جاءت في سفر الرؤيا.

بشارة وانتظار

والأمر ذاته ينطبق على المهدي الذي ينتظره المسلمون بهذا العنوان، وتنتظره الأمـم بعناوين مختلفة، ليكون مخلِّصها في آخـر الزمان من الظلم والجور الذي سـيعصف بها، لربما إلى حدٍّ لم تعرفه من قبـل بدلالة التركيز على عبارة: «**بعدما مُلئت ظلماً وجوراً**» كما جاء في النص المشهور عند المسلمين.

إلا أنّ المشكلة كمنت طوال التاريخ الإسلامي في الادّعاءات الكاذبة لمدّعي المهدويـة منـذ القرن الهجـري الثاني إلـى هذا العهـد، وهو ما أكّدتـه النصوص الإسـلامية أيضاً من قبيل: «**ولترفعن اثنا عشـر راية مشـتبهة لا يُعرف أيٌّ من أيٍّ**»، لتبـرز معها مشـكلة التطبيقات الخاطئة لعلائم الظهـور التي حفلت بها الكثير من محفوظـات وكتب المسـلمين فـي تراثهم الـذي تناقلوه عبر القـرون، ومن ذلك الشـخصيات المعروفة بأنها من الممهدين للمهدي أو من قادته الذين سينصرونه ويكونـون على رأس حركته العالمية في المواقـع المختلفة. ولا بدّ من التنبيه في هذا الإطار إلى عدة ملاحظات:

روايات ضعيفة

إنّ التحقيـق فـي روايات علائم الظهور والشـخصيات المذكورة فيها يؤكّد أنّ كثيـراً من هـذه النصوص لا ترتقي إلى مسـتوى تصمـد معه عند النقد في السـند والمتن، فأكثرها روايات ضعيفة سَنَداً، لجهالة حال بعض رُواتها، أو إرسالها، أو نقص في سلسـلة السـند أو لغير ذلك.. هذا فضلاً عن الخلل في المتن من حيث

التعـارض في توصيفاتهـا لنفس العلامة من حديثٍ لآخـر، أو لوجود قرائن على أنّها نصوص موضوعة أو محرّفة لغرض سياسـيّ أو توظيفيّ معيّن. وقد أكّد هذه الحقيقة عدّة من المحقّقين والباحثين في هذا المجال.

أحداث انقضت

كمـا أنّ مـن النصـوص مـا يتحدّث عـن وقائع أو شـخصيّات عرفهـا التاريخ وانتهـى دورهـا، بينما ما زال البعض يتوقّع أنّها من القضايا التي تُستشـرَف ضمن علائم الظهور أو شـخصيّاته في قادم الزمان. كما هو شأن روايات الخراب الذي يلحق ببعض المدن، أو بعض الحروب وما شاكل.

روايات مُطلَقة

ويُضـاف إلـى ذلك بعض مـن النصوص التي لا علاقة لهـا بعلائم الظهور في مضمونهـا، بل هي تتحدّث عن وقائع تاريخيّة مطلقة لا علاقة لها بالزمن القريب من عصر الظهور، كما لم يصرّح بأنّها من مطلق العلامات، إلاّ أنّ القراءة الخاطئة لهـا، أو الرغبـة في توظيفها في هذا الاتجاه دَفَع بالبعـض إلى اعتبارها منها، ومن ذلـك بعض الروايـات التي تتحدّث عن وقائـع خاصة بالخلفاء العباسـيّين، دون ذِكر لكونها من العلائم، بل ذُكرت كأحداث تستشـرف المسـتقبل، مع العلم بأنّ دولتهم انتهت قبل أكثر من ثمانية قرون.

أحداث مُحتمَلة

وصرّحـت بعـض الروايـات بـأنّ مـن العلائم مـا هـو محتمـل ومتوقِّف على شـروط معيّنـة، وأنّهـا تأتـي فـي ضمـن طبيعـة التقديـرات الإلهيـة التـي تشـاء أن تغيّـر فـي الأحـداث وفـق موازيـن القضـاء والقـدر: ﴿لِـكُلِّ أَجَـلٍ كِتَـابٌ ۞

يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٣٨ - ٣٩]. ومن هذه النصوص ما رُوِي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إنّ من الأمور أموراً موقوفة وأموراً محتومة، وإنّ السفياني من المحتوم الذي لا بدّ منه**». ولكن هذه النقطة في حدّ ذاتها تحتاج إلى وقفة نقديّة، إذ ما فائدة ذِكر علائم للظهور ينتظر المؤمنون تحقّقها ثم يظهر أنّها لن تتحقّق أبداً لسببٍ أو لآخر؟! بل لربما يتحوّل هذا الأمر ذاته إلى عامل تشكيكيّ في مصداقيّة المهدي عند الناس أو في التعامل مع تلك العلامات.. وقد اعتبر البعض أنّ الفائدة تتحقّق بعد وقوع الحدث: «فيأتي حينئذ دور المقارنة بين ما هو مذكور في الرواية، وبين ما وقع فعلاً ويكون الإيمان به، أو عدمه على هذا الأساس».. والله أعلم بواقع الحال.

قراءات انتقائيّة

وقد شهدت منطقة البحث في هذا المجال قراءة انتقائية للنصوص إمّا تحت تأثير البُعد العاطفي في المسألة، لاسيما في الظروف العصيبة التي قد تعيشها بعض المجتمعات الإسلامية فتبحث من خلال تلك النصوص عن بارقة أمل في هذه الحادثة أو تلك، أو في هذه الشخصية أو تلك.. أو توظيفاً للنصوص لمصالح سياسيّة أو دينيّة أو ما شابه ذلك مما لا يُخفى على القارئ.. ولعلَّ آخر تلك المحاولات ما ارتبط بأحداث الثورات العربية (الربيع العربي) خلال الأشهر الماضية حيث اعتبرت أنّها المصداق التطبيقي لما جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام حول علائم الظهور: «**إذا اختلف وُلدُ العباس ووهى سلطانهم وطمع فيهم من لم يكن يطمع، وخلعت العرب أعنتها ورفع كل ذي صيصية صيصيته...**» إلخ.

سلبيّات عديدة

ومن سلبيّات الأسلوب الإسقاطي الظنّي الذي يعتمده كثيرون في قراءة نصوص علائم الظهور وشخصيّاته وتأويلاتها:

إدخال القضيّة المهدويّة في إطارٍ مذهبيّ وسجالٍ طائفيّ، لتخرج بذلك من فضائها الإسلاميّ الرَّحب.

التسبّب في السخرية من هذه العقيدة ومعتنقيها بمرور الوقت وانكشاف عدم صدقية التطبيقات المذكورة.

المساهمة في خلق مناخٍ من الإحباط واليأس والتشكيك في أصل العقيدة لدى المؤمنين بها عندما يصطدمون بخطأ هذه التطبيقات مرّات وكرّات.

الوقوع في محظور ما هو منهيٌّ عنه في نفس تلك النصوص المتعلّقة بالمهدي وظهوره من قبيل ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كذب الوقّاتون وهلك المستعجلون ونجا المسلّمون**».

الرايات المشرقية

ومن نماذج التطبيقات والإسقاطات الظنّية التأويليّة ما يرتبط برايات أهل المشرق كما في سُنن ابن ماجة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**... وإنّ أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينتصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها إلى رجلٍ من أهل بيتي فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملؤوها جوراً**». حيث وظّف العباسيون هذه الروايات لمصلحتهم معتبرين أنّ راياتهم هي الرايات المنشودة، حتى قال أبو العباس

السفاح، وهو أول خلفاء بني العباس: «يا أهل الكوفة إنّا والله ما زلنا مظلومين مقهورين عن حقّنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقّنا... فاعلموا أنّ هذا الأمر فينا وليس بخارج منّا حتى إلى عيسى بن مريم. ويتكرّر ذلك في عصر لاحق حين اعتبرت الدولة الصفوية وسلطانها الشاه إسماعيل الصفوي الذي ينتهي نسبه إلى البيت النبوي أنّها هي المقصودة بهذه الرايات وأصحابها، وفي ذلك قال السيد نعمة الله الجزائري: «لا يخفى على أهل البصائر أنّه لم يخرج من المشرق سوى أرباب السلسلة الصفوية، وهو الشاه إسماعيل أعلى الله مقامه في دار المقامة. وقوله عليه السلام، لا يدفعونها إلا إلى صاحبكم، المراد به القائم عليه السلام. فيكون في هذا الحديث إشارة إلى اتّصال دولة الصفوية بدولة المهدي عليه السلام، فهم الذين يسلّمون الملك له عند نزوله بلا نزاع وجدال». ويستمرّ الأمر ذاته في هذا العصر من خلال المحاولات الظنّية التي يقوم بها البعض في الانتصار لهذا الطرف أو ذاك، أو لأسباب أخرى.

الدقة والتأنّي

وينطبق ذلك أيضاً على شخصيّات وَرَدَ ذِكرها في الأخبار كالسفياني والخراساني واليماني والحسني وشعيب بن صالح، حيث امتلأت المنتديات الإسلامية عموماً في شبكة الإنترنت بمحاولات التطبيق والتأويل بما لا يخفى على المتتبّعين لها في الوقت الذي قد لا ترتقي فيه بعض هذه النصوص المشتملة على ذكرهم إلى مستوى يُطمأن معه إلى صدورها عن النبي أو أحدٍ من أهل بيته عليهم السلام. إنَّ التعامل مع نصوص علائم الظهور وشخصيّاتها يحتاج إلى مزيدٍ من الدقّة والتحقيق وتجنّب الاستعجال في التطبيقات التي لا تعتمد على الدليل، بل تنساق وراء العواطف والتحليلات غير العلميّة، مما قد يترتّب

على ذلك الكثير من السلبيّات، وعلى رأسها ما يؤدّي إلى الوقوع في المحظور بتكذيب أصل القضية المهدوية عند مَن يتبعون الظنون ثم ينتهون في آخر مطافهم إلى تكذيب الحقائق بعينها.. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئاً﴾[يونس: ٣٦].



الغايات الثلاث

ثلاثـة عناويـن كبيرة تحدّثـت عنها الآيـات القرآنية التالية كغايـات متحقّقة أو مرجـوّة من وراء تشـريع الصيام في رمضـان: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِـبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَـامُ كَمَـا كُتِـبَ عَلَى الَّذِيـنَ مِن قَبْلِكُـمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ * أَيَّامًا مَّعْـدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّـامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْـكِينٍ فَمَـن تَطَـوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّـهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَـهِدَ مِنكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْـرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْـرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:١٨٣ ـ ١٨٥].

وبالتالي فهذه الغايات هي:

أولاً: التقوى

التقـوى هي الدعوة التي يدعـو الله إليها عباده في أغلب الآيات، لممارسـتها كأسـلوبٍ تربـويّ في نطاق العمل الإنسـاني من خـلال مراقبة الله والإحسـاس العميـق بوجـوده. ويمكـن القـول إنّ التقـوى بمثابـة التلخيـص العملـيّ لكلمة

الإسلام، لأنّها تشمل الجانب الفكري الذي يمثّل العمق الداخلي للإسلام، والجانب العملي الذي يمثّل الحركة الخارجية له، وذلك بأن ينطلق المسلم في فكره وعمله وعاطفته وعلاقته وتعامله مع الآخرين، من خلال رضا الله في أمره ونهيه في عملية التزام وانضباط، «**فلا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك**»، وأن يملك إرادته في مواقع حركة المبادئ في الحياة، بين يدَي ربّه، فلا تسقط التزاماته أمام ضغط شهواته ومطامعه.

ثانياً: التكبير

الملاحظ أنّ الشُّكر في الآية الأخيرة قُرِنَ بالترجّي، تماماً كما التقوى، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾، بينما لا نجد هذا الترجّي في تكبير الله ﴿**وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّـهَ**﴾. ولعلّ السرّ في ذلك أنّ تعظيم الله سبحانه متحقّق في شهر رمضان من خلال الصيام، وذلك بالتزام عددٍ كبير من المسلمين بذلك، علاوة على الأجواء التي يعيشونها من خلال الصلوات المستحبّة والحضور في المساجد وتلاوة القرآن والدعاء بما لا تشهده سائر الشهور، ومن خلال ذلك تتجلّى صورة من صور تعظيم الله سبحانه، وإن لم يُخلص البعض في نيّته، وإن لم يُحقّق الكثيرون الشروط والأوضاع الحقيقية للصيام، فالتعظيم متحقّق في الصورة الخارجية. تماماً كما في الحج حيث قال تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾[الحج: ٣٧]. فالصورة الخارجية لمناسك الحج وإقبال الملايين عليها والحركة التوحيديّة العظيمة المتحقّقة فيها، تتجلّى من خلالها صورة تعظيم الله وتكبيره، وإنْ لم يَعِش الكثيرون المفاهيم الحقيقية والكاملة للحجّ.

هذا بخلاف التقوى والشكر، فهما بحاجة إلى أن يسعى المسلم وراء الصيام

الحقيقي، الصيام الواعي، والصيام الذي يشترك فيه العقل مع القلب ومع الجوارح في صورة متكاملة ترتقي بالإنسان ليحقّق إنسانيّته من خلالها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ بعد أن اختار الكثيرون ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين: ٤ ـ ٥].

التكبير الذاتي

وكما أنّ تكبير الله سبحانه المترتّب تلقائياً مطلوب من قبل جماعة المسلمين من خلال مظاهر صيام شهر رمضان، كذلك هو مطلوب أن يتحقّق في النفس الإنسانيّة باستشعار نِعَم الله تعالى المتحقّقة في شهر رمضان والمتمثّلة في:

خصوصيّة نزول القرآن الكريم في هذا الشهر، وما فيه من هداية وفرقان بين الحقّ والباطل.

الهداية المتحقّقة للناس تكوينياً في وجودهم من خلال العقل والفطرة وغيرهما، وكذلك في ما يحيط بهم.

من خلال التغييرات التكوينية التي تحدث في هذا الشهر العظيم كما في أغلال الشياطين وفتح أبواب الرحمة.

بالهداية المتحقّقة من خلال الالتزام بتشريع الصيام فيه والبركات والفوائد المتحقّقة من وراء الصيام.

برفع الحرج والضرر عن المريض والمسافر تخفيفاً وتيسيراً في التشريع.

بجعل ليلة القدر التي هي أفضل الليالي على الإطلاق، وخير من مجموع عمر الإنسان في هذا الشهر.

قيمة التكبير

إنّ ادراك كلّ هذه النِّعم العظيمة كفيل بأنْ يستشعر المسلم عظمة الله، ليصغر عنده كلّ من عداه وكلّ ما عداه.

فلا يدعو مع الله أحداً، ولا يعطي المخلوق، مهما كان عظيماً أية صفة من صفات الله التي يختصّ بها كالخالقيّة والرازقيّة والقدرة المطلقة والعلم المطلق وما إلى ذلك. ولا يعطي المخلوق مهما كان قويّاً أيّ قدرة على حرفه عن طاعة الله سبحانه ومواقع رضاه. ولا يُعطي الشهوات والملذّات مجالاً لتكون السبب في الوقوع في الآثام والتواجد في مواقع غضب الله سبحانه.

ومن هنا كانت هذه الكلمة (الله أكبر) هي بداية الصلاة، وهي التي تتغيّر من خلالها أفعال المصلّي من قيام إلى ركوع إلى سجود إلى جلوس، ليشعر بعظمة الله سبحانه وتعالى وكبريائه الذي لا يدانيه فيها أحد، وكما رُوِي عن عليٍّ عليه السلام في صفة المتّقين: «**عَظُمَ الخالق في أنفسهم فَصَغُر ما دونه في أعينهم**».

ثالثاً: الشكر

الشكر هو تعبير عن إحساس الإنسان بإنسانيته، لأنّ الإنسان هو الذي يمتلك الشعور ويعترف بالجميل..كما أنّه انعكاسٌ لمعرفة الله، إذ إنّنا نعرفه من خلال ما نكتشفه من أسرار خلقه في أنفسنا وفيما حولنا، وقد جعل الله ما في هذا الوجود من مخلوقات مسخَّراً للإنسان: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا ان اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[لقمان: ٢٠]. وهكذا نتعرّف الله تعالى في علاقتنا به من خلال هذه النِّعم.

ولا يتحقّق الشكر فقط من خلال الكلمة التي هي من شؤون اللسان، بل الشكر

يتمثّل في طاعة الله سبحانه وتعالى في كلِّ ما أمرنا أن نفعله، والانتهاء عن كلِّ ما نهانا عنه فنتركه.

الشكر والمسؤولية

كما يتّصل الشكر أيضاً بتوجيه النعمة الإلهيّة نحو الهدف الذي خُلقت من أجله وتحقّقت النعمة من خلالها للإنسان. وهنا، نشهد تزاوجاً بين مفهومَي الشُّكر والمسؤوليّة. ونلمح عند هذا التزاوج قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إنّ اللهَ لم يُنعم على عبدٍ نعمةً إلا وقد ألزمه فيها الحجّة من الله، فمَن مَنّ الله عليه فجعله قويّاً فحجّته عليه القيام بما كلّفه، واحتمال مَن هو دونه ممّن هو أضعف منه، فمَن مَنّ الله عليه فجعله موسَّعاً عليه فحجّته عليه ماله، ثمّ تعاهده الفقراء بعدُ بنوافله، ومَن مَنّ الله عليه فجعله شريفاً في بيته، جميلاً في صورته، فحجّته عليه أن يحمد الله تعالى على ذلك، وأن لا يتطاول على غيره، فيمنع حقوق الضعفاء لحال شرفه وجماله**». وربّما لأجل الجانب العمليّ للشُّكر نجد هذا الاستهداف الإبليسي لبني آدم موجّهاً نحو خصوصية سلب الشكر عنهم كما جاء في الآية القرآنية: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[الأعراف: ١٧]. فهل سيكون صومنا في شهر رمضان من أدوات محاربة المخطّط الشيطانيّ وإفشال مساعيه؟

دراما الحسن والحسين (ع)

عندما ذمّ القرآن الكريم الشعراء الخاضعين لسلطان الدنيا بقوله عز وجلّ: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]، فإنّه في ذات الوقت يكشف عن حجم تأثير الشِّعر على الإنسان العربيّ حينذاك، وعن أهمّية التوظيف الصحيح له.

ولذا حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن يكون للشعر دورٌ في سلمه وحربه، وألقى بُردتَه على كعب بن زهير الذي كان يهجوه، وذلك بعد أن جاء مسلماً وألقى قصيدته المعروفة بقصيدة البُردة.

أهمّية الإعلام اليوم ازدادت بعد أن بات جزءاً من يومنا، سواء على المستوى التحليلي أو الخبريّ أو العمل الفنّي أو غير ذلك، بحيث يصعب على الفرد أن ينفكّ عن مصادره، وبات الإعلام اليوم يحرّك شعوباً ويُسقط حكوماتٍ ويُوجّه اقتصاديّات وأموالاً بالمليارات.

اعتراضات ودعاوى

وقد أُثيرت منذ مدّة موجة من الاعتراضات على مسلسل الحسن والحسين (ع) ومعاوية، وكان هناك تهديد برفع دعاوى قضائية من قبل جهات وشخصيات عديدة. ومع التأكيد على أهمّية صناعة السينما والمسرح وغيرهما من الوسائل الإعلامية، بل وضرورة ذلك، إلا أنّه يمكن تلخيص الاعتراضات على مسلسل الحسن والحسين في أمرين رئيسيين:

تجسيد الشخصيات

والسؤال المطروح: هل يحرم تجسيد الشخصيات المقدّسة كالأنبياء؟ على مستوى علماء أهل السُّنّة صدرت فتاوى عديدة، فالأزهر رفض إجازة العمل في بداية إنتاجه، وطالب بمنع عرضه استناداً لقرار مجمع البحوث الإسلامية الذي يحرّم ظهور الأنبياء والصحابة وآل البيت في الأعمال الدرامية.. وأخذت دار الإفتاء بمصر ذات الموقف.

وفي المملكة العربية السعودية توجد فتوى هيئة كبار العلماء، وكذلك فتوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء بتحريم تجسيد هذه الشخصيات.

وعلى مستوى فقهاء الشيعة فيمكن القول إنهم لا يملكون الدليل النصّي من القرآن والسُّنّة بحيث يحرّمون الأمر بعنوانه الأوّلي، أي من باب أنّه تجسيد، وبالتالي يعتبرون أنّ الأصل فيه مباح، ولكن يمكن أن يأتي التحريم من باب أنَّ العرف السائد يعتبر التجسيد نوعاً من الإساءة لتلك الشخصية، أو أنّ الممثل ـ بشخصيّته ـ قد يُسيء إليها، لأنّ هذا الممثّل معروف بفِسقه مثلاً، أو أنّه صاحب أدوار هزليّة، أو أنَّ أداءه هزيل بما يعكس صورة هزيلة عنها، أو أنّ في النص كذباً وتحريفاً.. وما إلى ذلك.

وقد سُئِل المرجع الديني سماحة السيد علي السيستاني: ما هو رأي الشرع في تمثيل شخصية الإمام المعصوم في الأفلام والمسلسلات؟ فأجاب: «إذا لم يكن فيه إساءة إلى شخصيّته المقدّسة في النفوس ـ ولو بلحاظ شخصية المتقمِّص ـ فلا مانع». كما وسُئل المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله عن ذلك فقال: «لا يحرم ـ من حيثُ المبدأ ـ أن نجسِّد صور الشَّخصيات المعظّمة دينياً بالصُّورة أو بالتَّمثيل، لأنَّه لَم يرد هناك أيّ نصٍّ شرعي يُحرِّم ذلك، ولكن المسألة هي هل إنَّ إظهار شخصية النبيّ في هذا الفيلم أو المسرحية مسيء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أم لا؟ فإذا كانت تُسيء إليه في العُرف العام من أيّ جانب، فلا تجوز، وإذا كانت لا تُسيء إليه، فيجوز ذلك». وهذا كان جوابه حول المسلسل حين سُئل من قبل الجهة المنتجة، وهو لم يُجِز مضمون العمل كما فهم البعض من تصريح المنتج الذي قال: «السيد محمد فضل الله رحمه الله أعطانا فتوى خاصة للعمل بجواز ظهور الحسن والحسين في المسلسل».

المضمون

لا أملك الحكم على مضمون هذا العمل الدرامي إذ لم أجد فرصة لمشاهدته ولم أقرأ نصَّه، ولكن تقييمي سيعتمد على ما صرّح به المنتج نفسه والذي قال: «تمّ وضع الروايات التي تخلو من الإساءة لأيٍّ طرفٍ، وكذلك تخلو من الإساءة للصحابة. إنتاج المسلسل مبنيٌّ على قاعدة حُسن الظنّ بين الصحابة وإظهار مؤامرات اليهود التي أدّت للخلافات فيما بينهم». فلو أخذنا فقط هذه المفردة التي تركّز على دور عبدالله بن سبأ، فإنّها ستؤكد بطلان ادّعاء المنتج بعدم الإساءة للشيعة وآل النبي وأصحابه. فهذه الشخصية التي أثبت التحقيق أسطوريّتها، وعلى الأقل هامشيّة دورها التاريخي، يمثِّل

التركيز عليها أكبر إهانة للتشيّع الذي نُتّهم عادة بأنّنا صنيعته، وقد قال رسول الله كما رواه عدّة من أصحاب الحديث من أهل السُّنّة، ومنهم الطبري في تفسيره، في تفسير سورة «البَيّنة» عن ابن عباس أنّه: «لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: **هم أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين، ويأتي عدوّك غِضاباً مقمحين**». فالتشيّع لعليّ ليس صنيعة ابن سبأ.

كما أنّه في ذات الوقت يمثّل إهانة كبيرة لبعض الصحابة حيث يتمّ إظهارهم بصورة السذّج الذين يسمحون لشخصية مجهولة أن تتلاعب بهم وتوجّههم وتستغفلهم إلى حدِّ إحداث الفتنة وقتل الخليفة والدفع نحو الحروب التي تُسفَك فيها دماء عشرات الآلاف من الأبرياء... علماً بأنّ أهمّ أسماء الصحابة الذين تذكرهم روايات ابن سبأ على أنّهم من الذين انساقوا وراء مخطّطاته: أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر ومحمد ابن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عديس، وكلّهم ليسوا من مسلمي فتح مكة أو من أهل الوفود في العام التاسع أو العاشر الهجريين.

سيف بن عمر

ولا أستبعد ضمن هذا الاتجاه أن يكون المسلسل معتمداً على روايات سيف بن عمر التميمي مختلق شخصية ابن سبأ.. وسيف هذا المتّهم بالزندقة، وقيل عنه إنه كان يضع الحديث على لسان الأثبات، وأنّ عامّة رواياته منكرة، وأن فَلساً خير منه. ولو قارنت رواياته بسائر الروايات حول ذات الحدث التاريخيّ، فإنّك ستجد الصورة دائماً مقلوبة، فالجاني يتحوّل إلى مجنيٍّ عليه، والمظلوم ظالماً.. ومَن أراد فليراجع كتاب عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى للمرحوم العلامة السيد مرتضى العسكري.

إنتاج متوازن

نعم، لا نتوقّع من السُّنّي أن يُنتج عملاً درامياً برؤية شيعية، كما لا نتوقّع من الشيعي أن يُنتج عملاً درامياً برؤية سُنّية، ولكن قارن بين هذا العمل وبين فيلم «الرسالة» مثلاً الذي حرص منتجوه على أن يحصل على موافقة أو مباركة المرجعيّات الإسلاميّة على اختلافها، وأن يراعي الملاحظات التي قُدّمت إليه. صحيح أنّ ذلك العمل لم يخلُ من ملاحظات، إلا أنه ما زال يحمل دلالات إيجابية في ذاكرة المشاهدين.

ولذا، إذا أردنا أن نُحسن الظنّ في أصل الغاية من إنتاج دراما الحسن والحسين(ع)، فنقول: ما هكذا تورد الإبل. فالتقريب بين المسلمين وإزالة أسباب الخلاف بينهم لا يكون عبر الطعن في معتقدات الآخر ومتبنّياته.

منابع الحرّية عند عليٍّ(ع)

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف:١٥٧].

من أهداف إرسال الرسل ـ وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكّ القيود التي قيَّد الإنسان نفسه بها وحمل أثقالها فأرهقته، دون أن يكون لها أيّ مردود إيجابيٍّ يُذكر.. فكانت هذه قيوداً تكبّل حريته وتعيقها في حياته. وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام ربيب مدرسة الرسالة المحمّدية، فعمل على ترسيخ الحرية في أكثر من بُعد..

لم يكن مفهوم الحرّية في ذلك الزمان يحمل دلالات كما يحملها اليوم، ولربما الدلالة الأبرز ـ وقيل الوحيدة ـ التي كانت لها هي الحرية في مقابل الرِّقّية وعبوديّة الإنسان للإنسان.. أمّا عند علي عليه السلام فقد كانت لهذه المفردة دلالات أعمق جاوز بها الزمن قروناً طويلة في أصل طرحها، وفي إدراك عمقها، دلالات تجلّت في سِلمه وحربه.. في حكومته وسياسته وإدارته.. في علاقاته الاجتماعية وفي سلوكيّاته الفردية.. في تربيته لأبنائه وأصحابه.

قيود العلاقات

عندما تكون هناك عناوين اجتماعية أو امتدادات تاريخية تفرض على الإنسان أن يتّخذ قرارات تكون سبباً لإلحاق الضرر بالآخرين ـ ولذا فهي تخالف قناعاته ـ فهذا يكون من التقييد والإصر الذي يضادّ الحرية التي آمَن بها عليّ عليه السلام وعمل على ترسيخها. ولذا كان الإمام عليّ(ع) حاسماً في رفض طلبات مَن ناصروه وبايعوه بعد قتل الخليفة عثمان بن عفان حين استشفّ منهم أنّهم إنّما يريدون ثمن تلك النصرة، أو الاستفادة من العنوان الاجتماعي أو صلة القربى التي تربطهم به.. رفض ليكون حرّاً أمام أيّ عنوان من هذا القبيل، وفكَّ نفسَه من أيِّ قيد يدفعه لفِعل ما يُخالِف قناعاته ويضرّ بالآخرين.. وقدّم بذلك لكلّ الوُلاة والمسؤولين نموذجاً حيّاً للحرّية في هذا الإطار: «**والله لأن أبيت على حَسَك ـ شوك ـ السعدان مسهّداً، وأُجرَّ في الأغلال مصفَّداً، أَحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البِلى قُفولها، ويطول في الثرى حلولها؟ والله لقد رأيت عقيلاً ـ أخاه ـ وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شُعثَ الشعور غُبْرَ الألوان من فقرهم كأنما سُوِّدت وجوههم بالعِظلِم ـ صبغة سوداء ـ وعاودني مؤكّداً وكرّر عليّ القول مردّداً، فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعُه ديني وأتبع قياده مفارقاً طريقي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دَنَف ـ مرض ـ من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه؟ أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟ وأعجب من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة، شنئتها ـ كرهتها ـ كأنما عُجنت بريق حية أو قيئها، فقلت أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرّم علينا أهل البيت. فقال: لا ذا ولا ذاك،**

ولكنها هدية. فقلت هبلتك الهبول، أَعَنْ دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جِنّة أم تهجر؟».

قيود الرغبات

«مَن ترك الشـهوات كان حراً».. بهذه الحكمة حرَّر عليّ(ع) نفسـه من شهواته والتعلق بالدنيا، فكان الزاهد الذي لا يرى في الدنيا قيمة إلا بما تمثّله من وسـيلة لتحقيق العبوديّة لله سبحانه، وهي العبودية الوحيدة التي آمن بها عليّ، وبما تمثّله من مجال لخدمة الإنسـان وعمارة الأرض بالخير، ولذا اعتبر أنّ الدنيا: «**مسـجد أحبّـاء اللـه، ومصلّى ملائكة اللـه، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله. اكتسـبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة**».. وكان الزاهد الذي لا يرى في المُلك قيمة إلا بما يمثّله من موقع لإحقاق الحقّ وإقامة العدل: «**والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جِلبَ شعيرة ما فعلت! وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها! ما لعليّ ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟! نعوذ بالله من سُبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين**».

وبالـغ عليّ(ع) في تحرير نفسـه حتـى حرمها من مُتعٍ كان يمكنـه أن ينالها بما هو مباح له، لأنّه كان يرى أنّ موقعه يفرض عليه أن يواسـي الطبقة الأشدّ فقراً في المجتمع: «**ولو شـئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسـائج هـذا القزّ، ولكـن هيهـات أن يغلبني هواي ويقودني جشـعي إلـى تخيّر الأطعمة. ولعلّ بالحجاز أو اليمامة مَن لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟ أو أكون كما قال القائل:**

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنّ إلـى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يُقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟»..

تحـرّر عليّ(ع) من كل ذلـك ليتفلّت من كلّ قيد يحول بينـه وبين إقامة العدل على الصديق والعدوّ معاً.

ولكنّـه في ذات الوقت أوصى ولاته بأن يوسّـعوا علـى القضاة كي لا يضطرّوا إلـى الرّشـوة ممّا يـؤدّي إلى ظلم الحقّ ومسـايرة الباطل، وهو يعلـم أنّ الآخرين لـن يتحمّلوا مـا يتحمّله: «**ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى مـن دنياه بطمريه، ومن طُعمه بقرصيـه. ألا وإنّكـم لا تقدرون على ذلـك، ولكن أعينوني بـورعٍ واجتهاد، وعفّة وسداد**».

تقوى الأحرار

وحتـى تقـواه وعلاقته بربّـه بناها على أسـاس الحرية، فهناك تقـوى مصطَنعة يقيّد الإنسـان بها نفسـه مراعاةً لبيئته، أو رغبةً في مكسـب دنيويّ يحقّقه.. وهناك تقوى نابعة من طمع مشـروع في عطاءٍ إلهي أخـرويّ، أو هروبٍ من عقاب إلهيّ أخرويّ.. ولكن عليّاً تحرّر من ذلك كلّه، فكانت تقواه نابعة من قناعته بأنّها طريق الخيـر والحقّ، وأنّها هي التي تحقّق إنسـانيّته، وأنّها هي التي فيها رضا الله، فكلّ عبودية ساقطة عند عليّ إلا العبوديّة لله، فهي التي ترفع الإنسان: ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾[مريم: ٥٧].. ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[الشرح: ٤].

حرية العمل

وكانت للحرّية في دائرة الحقوق العامّة حضورها الواضح في كلمات عليٍّ(ع) وفي أفعاله، فهو لم يستكره أحداً على مبايعته، بل تركهم على خطئهم، وهو واثق

بأنّهم على خطأ.. وحتى حين بلغه أنّ بعضهم يرحل من الحجاز والعراق التحاقاً بمعاوية، فما كان من عليّ(ع) ليصدّهم، ولا حاول استبقاءهم وإغراءهم، فهم في قناعته أحرار يعملون عن مدى تصوّرهم: «**اللهم إنّي دللتهم على طريق الرحمة وحرصتُ على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة، ليَثيب ـ يرجع ـ راجع ويتّعظ متذكّر، فلم يُطَعْ لي قول. اللهم إني أعيد عليهم القول**».. وكأنّه عليه السلام يعيد صياغة الآية بكلماته: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢١ ـ ٢٢].

وحينما كتب إليه واليه على المدينة سهل بن حنيف يُخبره بأنّ قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية قال: «**فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مدَدهم، فإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها. وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أسوة، فهربوا إلى الأَثَرة، فبُعداً لهم وسُحقاً، إنّهم والله لم ينفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل**».

حرّية القرار

وحين أخبره الخرّيت بن راشد بأنّه لن يأتمّ به، ولن يشهد معه الصلاة، ولن يأتمر بما يأمر، ولن يكون له سلطان عليه، فما كان من عليّ(ع) إلاّ أن أقرّه على ما ارتأى، وخلاّه حرّاً في ما شاء.. حتى إذا خرج الخرّيت من الكوفة مع جَمْعٍ من أنصاره لم يستكرههم على البقاء، وبيده ذلك، فلما أساؤوا استغلال هذه الحرية فاعتدوا على الأبرياء ونهبوا وأفسدوا، أرسل إليهم مَن أنصف منهم للأرض وللناس.

وحتى في الحرب لم يستكره عليّ عليه السلام أحداً ليكون من أنصاره، لا بقهرٍ مادّي ولا بإجبار معنويّ، إنما كان يتوجّه إلى عقولهم بمنطق العقل

والحجّـة، ويتوجّه إلى قلوبهم بمنطق الضمير والدليل، فإن ثابوا إليه أثنى عليهم، وإن تمـرّدوا عـاد عليهم بأبلـغ الوعظ وأتمّ النصيحة.. فهو يأبـى أن يلحق به أحد عـن غير بصيرة وإيمان.. وكتاب نهج البلاغة ملـيء بخطب الإمام التي يقيم فيها الحجـج على خصومه.. تماماً كما امتلأ القرآن الكريم بآيات الحجج والبراهين، والله غنيٌّ عن الناس.

لقد كانت الحرّية بالنسبة إلى عليٍّ (ع) أصلاً من أصول الإنسانيّة.. حرية نابعة من العبوديّة لله سـبحانه، فلا يتجاوز فيها طبيعة العلاقة التي تربط العبد بخالقه.. وحرّية نابعة من إيمانه بالمسؤوليّة، فلا يرضى لها أن تتحوّل إلى أداة تسيء لحريّة الآخرين أو الإضرار بهم أو الإفساد في الأرض.



أنفِق ما في الجَيب

سألني أحدهم عن الموقف الشرعي من تجارة الاستثمار بالذهب، وذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤ ـ ٣٤]، وهو يتوجّس خوفاً أن يكون بتجارته هذه من مصاديق الآيات السابقة، فالآية الأولى وإن بدأت الحديث حول الأحبار والرهبان، ولكن قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فيه حديث عن نموذج من نماذج الانحراف الذي تمثّل في سلوكهم وفي سلوك مَن سواهم.

وبالتالي فالسؤال المطروح: هل الآية بصدد تحريم مطلق الادّخار واعتباره نوعاً من أنواع البخل وعدم الثقة بالله وكفر النعم وطول الأمل؟ أم إنّها بصدد تحريم خصوص ادّخار الذهب والفضّة؟ أم غير ذلك؟

سؤال آخر

وهكذا سألني أحدهم عن صحة الفكرة التي وصلته من أحد المشايخ بأنّ القاعدة الإسلامية في المال هي «أنفِق ما في الجَيب يأتيك ما في الغيب» وأنّ

الادّخـار يتعـارض مع هذه القاعـدة.. إذاً ما هـي دلالة الآيات؟ وعلى أيِّ شـيء تنطبق؟

اعتبر العلامة الطباطبائي أنّ الشرع الإسلامي لا يعارض أصل مسألة الادّخار، وأنّ لا حـدّ لهذا الادّخـار، ولكـن الآية بدلالة كلمة الكنز التي تعني (الجمع مع تضمّنهـا معنى الإخفاء عـن العيون) إنّما هي بصدد بيان حكـم حالة معيّنة، وهي إخفـاء المال عن الأنظار، والامتنـاع عن تحريكه في أجواء السـوق التجاريّة، أو فـي مجـالات الإنفاق العام الذي قـد يتمثّل في الحقوق الشـرعيّة الواجبة، أو في مـا يفرضه وليّ الأمر من إنفاقات طارئة بسـبب ما يحتاجه المجتمع الإسـلاميّ، مـا يجعـل مـن إخفائه مانعـاً عن الاطـلاع عليه للاسـتفادة من ذلك فـي مواجهة المشـاكل الاقتصادية التي تحدث في المجتمع، قال: «فالآية إنّما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصة التي هي إيثار الكانز نفسـه بالمال من غير حاجةٍ إليه، على سـبيل الله مع قيام الحاجة إليه».

دلالةٌ أوسع

أما المرجع الراحل السـيد فضل الله فقد اعتبر في تفسـيره (من وحي القرآن) أنّ تفسـير الآية بهذه الصورة سـيجعل دلالتها محدودة جداً في حالات معيّنة قد لا تتكرّر كثيراً في تصرّف الأفراد، ممّا يُفقد الآية دلالتها الواسعة التي تحاول من خلالها معالجة انحرافٍ عند الناس، فكم نسبة الأشخاص الذين يخفون أموالهم عـن الأعيـن حبّـاً للمـال؟ والغالب في تصـرّف النـاس أنّ حبّهم للمـال يدفعهم للاستثمار وتحريك المال تجاريّاً لزيادته.

ولـذا اعتبـر أنّ الآية تتحدّث عـن ظاهرةٍ عامة منحرفةٍ تتمثّـل في أولئك الذين ينحرفون بالمال عن هدفه، ويعيشـون الحياة للمال ويعتبرون جمْعه قيمةً حياتيّة،

بعيداً عن أيّ هدف كبير يتعلّق بحياة الناس، الأمر الذي يدفعهم إلى أن يحصلوا عليه بالحقّ، أو بالباطل، كهؤلاء الأحبار والرهبان، ويستغرقوا فيه، كما لو كان هو الهدف للحياة، فيؤدّي ذلك إلى أن يمنعوه عن المجالات العامة التي أراد الله للمال أن يُنفَق فيها، ممّا أمر الناس أن ينفقوه في سبيله.

حصيلة الرأيين

على العموم، سواء فهمنا الآية بتلك الصورة أو بهذه، فإنَّ الموقف الشرعي لا يتعارض مع أصل الادّخار، ما دام أنّ الإنسان يقوم بوظيفته المالية في الإنفاق على نفسه وعياله وفي أداء مسؤوليّاته الماليّة تجاه الله والمجتمع، أو ما دام أنّه لم يحوّل المال إلى غاية وقيمة حياتية.

ولعلّه يمكن الاستشهاد بمفهوم قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾[الإسراء: ٢٩] للدلالة على ذات الفكرة، وهذا أيضاً ما تؤكّده الحكمة المرويّة عن النبي وعليّ والحسن عليهم السلام: «**إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً**» فهل يمكن لإنسان أن يعمل في الشأن المالي والاقتصادي كأنّه سيعيش للأبد دون أن يدّخر للطوارئ وللاستثمار وأمثالهما؟!

وأمّا النصوص من قبيل ما جاء في ذيل رسالة الإمام الرضا لابنه الجواد عليهما السلام: «**فأنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقتاراً**» فيبدو أنّها ناظرة إلى الكرم في العطاء، لا أنّها تذمّ أصل الادّخار.

إعدام مرتدّ

يُطرح موضوع عقوبة الرِّدّة كواحدة من الإشكالات على التشريعات الإسلامية، حيث تكون العقوبة هي الإعدام، إما بحقّ المرتدّ الفطري (مَن كان مسلماً في الأصل ثم ارتد) أو بحقّه وبحقّ المرتدّ المِلّي (مَن كان على دين ثم أسلم ثم ارتدّ).. وبالتالي يعتبر أصحاب هذا الإشكال أنّ هذه العقوبة:

غير متناسبة مع حجم الفعل، فمن ارتدّ سينال عقوبته في الآخرة، أما في الدنيا فلربما لا يصدر منه قبيح على مستوى السلوك الخارجي بما يستحقّ معه عقوبة الإعدام.

غير متوافقة مع حرّية الرأي والعقيدة المكفولة بقوله سبحانه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[البقرة:٢٥٦].

سأقدّم النقاط التالية كإجابات لهذا الإشكال، ولكن بصورة إثارات متنوّعة في محاولة لفهم هذا التشريع من نواح مختلفة متعدّدة الأوجه.

الرِّدّة عند الآخرين

لا تختصّ عقوبة الإعدام للمرتدّ بالتشريع الإسلامي فقط، ففي التوراة في سفر التثنية، الإصحاح ١٣: «وإذا أغواك سرّاً أخوك ابنُ أمّك أو ابنُك أو ابنتُك أو امرأة

حضنِـك أو صاحبُك الذي مثلُ نفسـك قائلاً نذهب ونعبد آلهـة أخرى لم تعرفها أنـت ولا آبـاؤك من آلهة الشـعوب الذين حولك القريبين منـك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترضَ منه ولا تسـمع له ولا تشـفق عينُك عليه ولا ترقّ له ولا تسـتره، بـل قتلاً تقتله. يدُك تكون عليـه أوّلاً لقتله ثم أيدي جميعِ الشـعب أخيراً. ترجمه بالحجارة حتى يموت، لأنّه التمس أن يطوحك عن الربّ إلهـك الـذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، فيُسـمع جميع إسـرائيل ويخافون ولا يعودون يعملون مثل هذا الأمر الشرير في وسطك».

وفـي القرن الخامس عشـر الميلادي أقرّت الكنيسـة الكاثوليكيـة قانون الرِّدّة عن المسـيحية بحيث كما ذكـر المؤرّخون الغربيّون كانـت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة أحياءً إن لم يعترفوا بالذنب قبل بدء المحاكمة، فإن اعترفوا بعد صدور الحكم فيُرحم بشنقه أولاً ثم إحراقه. وقد نال هذه العقوبة الآلاف في أوروبا. ولسـت في مقام تبرير الحكم الشـرعي الإسـلامي، ولكن السؤال: لماذا يوجَّه هذا الإشكال إلى الإسلام فقط، ويُغضّ الطرف عن غيره؟ فإن أثبتنا أنَّ هذا هو التشريع الإسلامي بحقّ المرتدّ، فلن يكون بِدعاً عن غيره.

ليس ضرورة فقهيّة

عقوبـة الإعدام للمرتدّ ليسـت من الضـرورات الفقهية غير القابلة للمناقشـة، ويعود ذلك لأسباب:

القـرآن لا دلالـة فيه على الحكم المذكور، بل ربمـا تُدّعى دلالته على العكس كما في آية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

الأحاديث عند دراسـتها قابلة للمناقشـة في سـندها، وكذلك في دلالتها على المطلب.

العقل لا دلالة له على الحكم المذكور

ولذا ناقش بعض الفقهاء في هذه العقوبة من جهات منها: هل إنّ حدّ الردّة حكم مولويّ تشريعيّ أو إنّه حكم تدبيريّ يقرّه الحاكم ضمن ظروف معيّنة قد ترتفع فيتغيّر الحكم؟ فإن كان مولويّاً لم يحقّ لأحد رفعه أو تغييره، وهو يتّسم بالثبات والديمومة. وإن قلنا إنّه تدبيريّ فسيكون حكماً مؤقّتاً قابلاً للتغيير أو التجميد من قِبَل الحاكم الذي بيده السلطة الشرعية. ويرى البعض أنّه من المعقول جداً أنّ الإسلام اتّخذ هذا الإجراء الشديد في بداية تأسيس المجتمع الإسلامي الفتيّ والذي كان يواجه المخاطر من الخارج والداخل كالمنافقين وذوي النفوس المريضة الذين كانوا يتربّصون بها الدوائر.. فيكون التشدّد إزاء حالات الرِّدّة أمراً مفهوماً ووجيهاً لئلّا تؤدّي رِدّة من هنا ورِدّة من هناك إلى تعريض الكيان برمّته إلى خطر الانهيار.

خيانة المجتمع

ولو افترضنا أنّه تشريعٌ مولويّ، فيراه البعض من باب العقوبة على خيانة المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، وأنّه لا يخصّ مجرّد الرِّدّة الفكرية، وإنّما هو ناظر إلى الرِّدّة التي تمثّل خروجاً على النظام الإسلامي أو تتحوّل إلى عمل تمرّدي أو انشقاقيّ أو عدوانيّ، ما يجعل الرِّدّة مساوية لما يُعرف فقهياً بالحرابة، باعتبار أنّ إعلان الرِّدّة يمثّل سعياً لتحدّي وهدم الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية، وهو الدين الإسلامي. ومن الطبيعي لكلّ دولة أن تسعى للحفاظ على المبادئ التي تأسّست عليها، وأن تضع العقوبة المغلّظة كالإعدام لمن يسعى لهدم أساس من أُسُسها.. وإلاّ فإنّ هذا المرتدّ لو احتفظ بقناعاته لنفسه ولم يخرج بها إلى العلن لم يُعاقب.

ولربما يشهد على ذلك القيد الموجود في نهاية الخبر التالي المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يحلّ دم امرئ مسلم شهد ألاّ إله إلا الله وأنّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**». على اعتبار أنّ مفارقة الجماعة يعني الإجهار بذلك، بما يمثّل صورة للتحدّي والسعي للتخريب أو الانضمام لأعداء الدولة الإسلامية.

ومن هنا أيضاً لربما يقال إنّ حكم الإعدام لا يُنفّذ عندما لا يكون الحكم في الدولة قائماً على أساس دينيّ إسلامي، لأنّ عنوان الخروج على النظام الإسلامي غير متحقّق حينئذ من الأساس.

مفهوم الاستتابة

الاستتابة سواء قلنا إنّها من حقِّ كلّ مرتد، أو المرتدّ الملِّي فقط تعني الحوار مع المرتدّ، بدعوته إلى طرح الأسس التي ارتكز عليها في إنكاره للإسلام، والدخول في حوار مع العلماء المختصّين حول كلّ تلك المفردات بكلِّ حرية وموضوعية، من أجل إقناعه بالخطأ الذي وقع فيه في رفضه للدين وخروجه منه، فإذا امتنع من الدخول في الحوار، أو بقيَ على سلبيّته بعد إقامة الحجج عليه، فإنَّ ذلك يدلّ على أنَّه ينطلق في موقفه من حالة عناد يبيّت من خلالها نيّة سوء تجاه المجتمع الإسلامي.

ثم إنّ المحاورين إذا لم يمتلكوا الردود المقنعة للمرتد ولا الدليل على صحة كلامهم وخطئه، فليس لهم عليه أيّة حجة في ارتداده وإيقاع العقوبة عليه.

حكم الشاكّ

ثم لا بدّ من تعريف دقيق للردّة.. وهل يُعتبر الشاكُّ مرتدّاً أم لا..؟ وقد اعتبر بعض المحقّقين أنّ مَن لديه شبهة وشكّاً لا يُعدّ مرتدّاً، بل اعتنى الإسلام بحالة

الشك عند الإنسان إذا كان موضوعيّاً في شكّه ومخلصاً في حركته نحو الحقيقة، وهناك حديثان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يؤكّدان ذلك، ففي أحدهما: «**لو أنّ الناس إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا**». وسأله شخص قال له: «**رجل شك في الله؟ قال: كافر، قال شك في رسول الله؟ قال: كافر، ثم عقّب، إنّما يكفر إذا جحد**». أي إنّه ما دام في دائرة الشكّ الذي يتحرّك في اتجاه اليقين من خلال البحث فإنّه ليس كافراً.

الجهل بالإسلام

ويُضاف إلى الشاك مَن عاش من المسلمين في عزلةٍ بعيداً عن المجتمعات الإسلامية، ولم يصلهم شيء عن حقيقة الإسلام سوى أنّهم ورثوا هذا العنوان عن أسلافهم، وفي المقابل أُخضِعوا لعمليات ضخّ تربويّ وإعلاميّ مناهض للدين عموماً أو للإسلام خصوصاً، كما حصل لمجتمعات إسلاميّة إبّان العهد الشيوعي مثلاً.. فهل يمكن اعتبار هؤلاء فيما لو تركوا دينهم مرتدّين ومن الذين يستحقّون عقوبة الإعدام، وبلا استتابة ولا إقامة الحجّة والدليل عليهم؟! لا أظنّ أنّ أحداً من الفقهاء ممّن يملكون حسّ الواقعيّة والفهم الموضوعي يقول ذلك.. والحدود تُدْرَأ بالشُّبُهات.

التداوي بالقرآن ١

مـن القضايـا المثيرة للجدل مسـألة الاستشـفاء بالقرآن الكريـم من الأمراض الجسـديّة، فهل هي صحيحة ومشـروعة أم لا؟ وما أدلّة ذلك؟ وهل من شـروطٍ للتـداوي بالقرآن؟ وهل التداوي بالقرآن بديل عـن التداوي بالطبّ؟ وغيرها من الأسئلة العديدة.

قانون العليّة

روى الكليني عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أبى الله أن يُجري الأشـياء إلاّ بأسـباب، فجعل لكلّ شيء سـبباً، وجعل لكلّ سـبب شرحاً، وجعل لكلِّ شرح عِلْماً**». وهذا القانون مهمّ جداً في فهم طبيعة الحياة ومجريات الأمور وتبدّلاتهـا، والتعامل مع كلِّ ذلك بالصورة الصحيحة، ومن خلاله يمكن لأمّة أن تتطوّر وتتقدّم أو أن تتقهقر حضارياً.. فالإنسـان ليس ريشـة فـي مهبِّ الريح، بل هو الذي يصنع التاريخ من خلال ما خلق الله ومن خلال اكتشـاف القوانين التي أودعها الله في خلقه.

بالطبع هذا لا يعني إنكار التدخّلات الغيبيّة والمعاجز والكرامات ولكنّها تمثّل حالات اسـتثنائيّة نادرة في مقابل كلّ الحالات التي تسـير وفق القانون الطبيعي، كما ولتلك الاستثناءات أيضاً قوانينها الخاصة.

القرآن شفاء

هل يمكن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء: ٨٢] على شرعية التداوي بالقرآن الكريم من الأمراض الجسدية؟ يذكر العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان أنّه كما أنّ للإنسان في جسمه صحة ومرضاً وشفاء، فكذلك له صحة روحيّة تتمثّل في العقائد والأخلاق الفاضلة، وله أمراض روحيّة ترتبط باختلال العقائد والأخلاق، من قبيل ما في قوله سبحانه: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾[الأحزاب: ٦٠]. وله شفاء منها أيضاً. وبالتالي يعتبر العلامة الطباطبائي أنّ الآية القرآنية إنّما تتحدّث عن هذا النوع من المرض والشفاء منه، وأنّ القرآن يعالج ذلك، قال: «والقرآن الكريم يزيل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة أنواع الشكوك والشبهات المعترضة في طريق العقائد الحقّة والمعارف الحقيقيّة ويدفع بمواعظه الشافية وما فيه من القصص والعِبَر والأمثال والوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأحكام والشرائع عاهات الأفئدة وآفاتها. فالقرآن شفاء للمؤمنين».

القرآن رحمة

ويضيف العلامة الطباطبائي أنّه من خلال الرحمة ينوّر القرآن القلوب بنور العلم واليقين، ويحلّيها بالملَكات الفاضلة والحالات الشريفة الزاكية. ويؤكّد المعنى السابق بقوله: «فمعنى قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وننزّل إليك أمراً يشفي أمراض القلوب ويزيلها، ويُعيد إليها حالة الصحة والاستقامة فتتمتّع من نعمة السعادة والكرامة». ويزيد المراد وضوحاً من خلال نفس الآية حيث تذكر دور القرآن في زيادة خسران الظالمين: «إنّ كفرهم

بالقـرآن وإعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسـاراً على خسـار ونقصاً على نقص، إن كانـت عندهم بقية مـن موهبة الفطرة». والنتيجة المتحصّلة ممّا سـبق أنّ الآية القرآنية لا علاقة لها بالاستشفاء بالقرآن من الأمراض الجسدية.

طريق مختصرة

قـد يقـول قائـل إنّ في البيِّـن طريقاً مختصـرة نتجنّب مـن خلالـه اللجوء إلى الأطبـاء وتنـاول الدواء كما في قول الخليل إبراهيم عليه السـلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُـوَ يَشْفِينِ﴾[الشـعراء: ٨٠]، فهـذا يمثّـل الحالة الأرقى في تعامـل المؤمن مع المرض الجسديّ، والقرآن من سبل ذاك الطريق المختصر. وكلّما ارتقى الإنسان إيمانيّاً، كلّما كان الوصول للعلاج الإلهي المباشـر أقرب سبيلاً. بل اعتبر البعض أنّ مراجعة الأطباء ينافي إخلاص التوحيد لله سبحانه.

ولكنّنـا نجيـب هؤلاء بـأنْ ليس المراد بما في الآية الشـفاء المباشـر بعيداً عن الأسـباب، بل هو بنفس معنى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[الشـعراء: ٧٩]، فهـل كان يُطعمه ويُسـقيه بصورة مباشـرة أم بصـورة طبيعيّة من خلال الأسـباب والطريقـة المألوفـة كالرعي والزراعـة والتجارة وغير ذلك؟ بالطبـع هذا لا يعني أن نُلغـي دور الدعاء واللجوء إلى اللـه والتصدّق وغيرها، ولكنّها تأتي مع الأخذ بالأسباب الطبيعية للتداوي.

السيرة تؤكد ذلك

وهذا ما تؤكّده سـيرة النبي وآله عليهم السلام، ولنلاحظ الخبر التالي المرويّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السـلام: «**إنّ قوماً من الأنصار قالوا: يا رسـول الله إنَّ لنا جاراً يشـتكي بطنه، أفتأذن لنا أن نداويه؟ قال: بماذا تداوونه؟ قالوا: يهوديّ عندنا يعالج من هذه العلّة. قال: بماذا؟ قالوا: يشقّ بطنه فيستخرج منه شيئاً. فكره**

ذلـك رسـول الله، فعاودوه مرّتيـن أو ثلاثاً فقال: افعلوا ما شـئتم. فدعوا اليهودي فشـقّ بطنه ونزع منه رجرجاً كثيراً، ثم غسـل بطنه، ثم خاطه وداواه، فصحّ، فأُخبر النبـي بذلك فقال: إنّ الذي خلق الأدواء خلق لها دواء...». ويبدو أنَّ كراهة النبيّ انصبّت على أسلوب العلاج الذي كان غريباً بالنسبة إلى ذلك المجتمع، وإلاّ فإنّه صلّى الله عليه وآله وسلم كان بنفسه يتداوى ويأمر بالتداوي بالعلاجات الدارجة في البيئة العربية.

ومن هنا جيء بالطبيب النصراني لأمير المؤمنين عليه السـلام ليشـخّص علّته ويداويـه مـن جرح ابن ملجم، وأخذوا بقوله حين أكّد لهـم بطريقته العلمية أنْ لا أمل في الشـفاء من الجرح والسُّـم.. وغير ذلك من النصوص التي تؤكّد لجوءهم إلـى الأطباء والأدوية للعلاج، وهم أولى من سـواهم بلحاظ مقامهم عند الله أن يَدَعـوا الاستشـفاء بالأدوية والتشـخيص بالوسـائل الطبّية ويلجـؤون إلى القرآن والدعاء دون سواهما.

❁ ❁ ❁

التداوي بالقرآن ٢

طرحت في المقال السابق تساؤلاً حول شرعيّة الاستشفاء بالقرآن، وبيّنت أنّ آية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء: ٨٢]، لا تدلّ على المطلوب، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أيضاً لا دلالة له على ذلك. وأنّ السيرة العمليّة للنبي وآله كانت التداوي بالطبّ والأدوية المتعارفة في زمانهم.

مئات الأحاديث

وهناك قرابة الألف رواية عن النبي وآله عليهم السلام في المصنّفات الشيعيّة تقدّم وصفات علاجيّة بالأعشاب وأمثال ذلك من العلاجات المتعارفة في ذلك الزمن ولمختلف الأمراض، وقد أورد الحرّ العاملي وَحْدَهُ في كتابه (الفصول المهمّة) أربعمائة واثنين وثلاثين رواية في هذا المجال. بالطبع ليس كلّ هذه الروايات صحيحة، وهي تحتاج إلى دراسة علمية متأنّية، وقد قال عنها الشيخ المفيد: «اعتقادنا في الأخبار الواردة في الطبّ أنّها على وجوه: منها ما قيل على هواء مكّة والمدينة، فلا يجوز استعماله في سائر الأهوية. ومنها ما أخبر به العالِم على ما عرَف من طبع السائل، ولم يتعدَّ موضعه، إذ كان أعرف بطبعه منه. ومنها

ما دلّسه المخالفون في الكتب لتقبيح صورة المذهب عند الناس. ومنها ما وقع فيه سهو من ناقله. ومنها ما حُفظ بعضه ونُسي بعضه». ولكنّها على كلٍّ حال تُعطي قناعة إجماليّة بأنّهم كانوا يتداوون بالطبّ ووسائله ويوجّهون الناس إلى ذلك، وإلاّ لاكتفوا بالقرآن وتلاوته.

نفي العلية

وبالتالي لا يستقيم ما طرحه البعض من أنّ اللجوء إلى الطبّ والأطبّاء والعلاجات الدوائية ينافي التوحيد الفاعليّ، أو أنّ الاعتقاد بوجود العلل للأشياء ينافي العقيدة الصحيحة كما قال أحدهم:

والفعل في التأثير ليس إلا للواحد القهّار جلّ وعلا

ومَن يقل بالطبع أو بالعلةِ فذاك كفرٌ عند أهل الملةِ

ومن يقل بالقوّة المودعةِ فذاك بِدَعي فلا تلتفتِ

معالجة الروايات

على كلٍّ حال هناك روايات تنصّ على التداوي ببعض الآيات من قبيل ما رواه ابن سابور في كتابه (طبّ الأئمة) وهي رواية ضعيفة السند مرويّة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاة قط فقال بإخلاص نيّة ومسح موضع العلّة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ إلا عُوفِيَ من تلك العلّة، أيّة علّة، ومصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾».

فإن صحّت الرواية فلِمَ لم يلجأ النبي وآله إلى ممارسة ذلك الأسلوب للشفاء من عِلَلهم ولعلاج أهلهم وأصحابهم، بل تمّ اللجوء إلى طبيب يهوديّ تارة

وطبيب نصرانيّ تارة أخرى.. والموارد متعدّدة؟

نعـم يمكن أن نعتبر هذه الروايات وروايات أخرى تتحدّث عن عُوذَات وُرقَى معيّنة تُقرأ لكلِّ مرض، بأنّها توجّه المريض للّجوء إلى الله سبحانه، لأنّ كلّ شيء بيده، فهي بالتالي:

عامل معنوي

مسـاعد فـي تقوية الإرادة وبثّ الـروح القوية الصامدة في وجـه آثار المرض، وإزالة حالة الخوف والقلق، ممّا يساعد الدواء في تحقيق تأثيره الإيجابيّ. فالتأثير النفسـيّ للقرآن الكريم يندرج تحت قوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[الرعد: ٢٨].

وسيلة للدعاء

وطلبُ الحاجات منه عزّ اسمه، وقد قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[غافر: ٦٠]، وتأتي بالتالي موازية مع التطبّب والتداوي، ولا تلغي دوره.

علاج نفسي

في حال كون المرض بنفسِه ذي بُعد نفسيّ. ففي قصة النبي يوسف عليه السلام نجـد أنّ أبـاه يعقوب عليه السـلام تأثّر معنويّـاً لفراق ابنه فقـال تعالى في وصف ذلـك: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَـفَى عَلَى يُوسُـفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِـنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[يوسـف: ٨٤].. ولـذا كان علاجه معنويّاً أيضاً، حيث قال لهم يوسـف: ﴿**اذْهَبُـواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً**﴾[يوسـف: ٩٣] وهذا ما تحقّق فعلاً: ﴿**فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً**﴾[يوسف: ٩٦].

أمراض تحوّلية

ومن الثابت علميّاً أنّ هناك بعض الأمراض الجسدية تكون ذات أساس نفسيّ تصيب الإنسان في مناطق معيّنة من جسمه وتُعرف بأنّها: «عُصاب تحوّلي تتحوّل فيه الانفعالات المزمنة إلى أعراض جسميّة كالعمى والشلل والصمم والبكم، وليس لها أساس عضويّ». ولربما يكون ما يُشاهَد في ما يبثّ فضائياً من شفاء بعض المرضى من الشلل مثلاً تحت تأثير قراءة الإنجيل والترانيم أو غير ذلك على يد قسيس في أجواء ومراسيم معيّنة من هذا القبيل، وليس بالضرورة أن يكون حالة تمثيليّة تصنّعية.

والخلاصة أنّ السبيل للتداوي هو الطريق العلميّ مع اللجوء إلى الله سبحانه بالدعاء والصدقة والتوكّل عليه، وتأتي تلاوة القرآن الكريم كعامل مساعد يتقرّب فيه العبد من خلاله إلى الله ويبعث بواسطته روح السكينة والطمأنينة في نفس المريض ومَن يهمّهم أمره.

❁ ❁ ❁

المحتويات

المقدّمة ٥
الإسلام والخرافة ٧
لا إكراه في الدين ١١
شركاء في الجريمة ١٥
اركعوا وأنيبوا ١٩
عليٌّ والحقّ ٢٩
تصحيح مفهوم النقد ٣٣
رسالية فقيه ٣٧
تاريخيّة السُّنة النبويّة ٤١
الغايات الثلاث ٥١
دراما الحسن والحسين(ع) ٥٧
منابع الحرّية عند عليٍّ(ع) ٦٣
أنفِق ما في الجَيب ٦٩
إعدام مرتدّ ٧٣
التداوي بالقرآن ١ ..... ٧٩
التداوي بالقرآن ٢ ..... ٨٣



بطاقة تعريف

علي حسن غلوم علي

- المولد: 1965 / الكويت.
- التحق بالحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة عام 1983 إلى 1991.
- والتحق بموازاة ذلك بالجامعة الإسلامية المفتوحة (دانشكاه آزاد إسلامي) تخصص أدب إنجليزي.
- حاصل على عدة شهادات في مجال الحاسب الآلي.
- أكثر من 40 مصنفاً في الأبواب المختلفة، من بينها (مفاهيم حركية من وحي القرآن في مجلدين ـ لا فتى إلا علي ـ الدرة الثمينة في أخبار مكة والمدينة ـ سلسلة حدائق الإيمان وبساتين الإيمان وهي 9 كتب دراسية في مادة التربية الإسلامية ـ محطات في الفكر والسياسة والأدب ـ منتقيات في 3 كتب ـ صلاة الجمعة ـ أحكام المريض والمصاب ـ رسالة المسجد).
- 14 برنامج حاسب آلي.
- إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان تصدر في الكويت في جريدة الوطن منذ أكثر من 3 سنوات.
- 16 حلقة رسوم متحركة كرتونية تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
- عدة تمثيليات إذاعية وتسجيلات صوتية ومرئية موجهة للأطفال والشباب والمتزوجين بطريقة مميزة.
- تأسيس وإدارة دورات دراسات صيفية منذ عام 1991 ـ 2010
- المشاركة في عدة مؤتمرات عقدت في الكويت ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة.
- حالياً إمام جمعة وجماعة في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
- المشرف الديني على حملة التوحيد الكويتية للحج منذ موسم 1413 ـ 1992 وحتى الآن.
- عضو هيئة أمناء مؤسسات المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله.

3000